رمشان مصطفى سليمان

كل امرأة ، لها صفة وشخصية مميزة تختلف عن الأخريات

امرأة اسمها وفاء

تزوجت رغم صغر سنها كعادتنا نحن المصريين في الزواج المبكر خوفا من العنوسة هكذا تقول الأمهات ، و إن كان الآباء يفكرن بأسلوب مختلف و هو أن تخرج البنت من داره لتكون أسرة جديدة فيشعرون بالراحة .. وهدا هو أسلوب شرقنا العربي الدي يهدف إلى تزويج البنات في سن مبكرة .

أحست بالسعادة تسري في حياتها كلها .. فزوجها ذلك الرجل الطيب ، يعمل على سعادتها مهما كلفه الحال من مال ، المهم أن تكون سعيدة حتى يكون البيت سعيدا ، و أنعم الله عليها بالإنجاب ، فرزقت ابنة و ابن ، و حصرت نفسها في رعاية بيتها أولا ، وعملها ثانيا بعد أن نالت شهادتها، وعملت على إسعاد الجميع من حولها ، فالسعادة كما تعودتها في بيتها التي نشأت فيه هدف يشعر المرء من خلاله على الراحة و الأمان.

ولم يمض على زواجها غير سنوات قليلة من السعادة حتى بدأت تهب على حياتها سحب المشاكل التي حاصرتها من كل اتجاه ، ليست سحب بيضاء فقط ، و إنما سحب سوداء أيضا ، وكان سلاحها الوحيد الصبر مع هذا الزوج الحنون ، الذي لم يبخل بشيء من أجل سعادتها ، ومن أجل راحتها.

توفى أبوها .. فحاولت جاهدة أن تأتي بأمها لتعيش معها بدلا من أن تعيش وحيدة ، بعد أن تزوج كل أبنائها .. و لكن أمها أبت أن تترك

بيتها التي عاشت فيه كل حياتها ، عاشت فيه الحلوة و المرة .. ورغم المبررات التي ســـاقتها هي وزوجها من حاجتها إلى الرعاية ، إلا أنها صممت على رفضها ، فهي لن تكون هدفا للتجارب هنا أو هناك .

وكان الوعد الذي قطعنه على نفسها مع زوجها أن تأتي لزيارتها لتوضيب الشقة مرة او مرتين في الأسبوع ، و تعد لها الطعام ، وتغسل لها ملابسها ، فقد بلغت أمها سن الكبر عتيا، بحيث لا تستطيع أن تعتني بنفســها ، و هاجمتها أمراض الشــيخوخة بلا رحمة ، الســكر و الضــغط و القلب ، الوحدة التي تهاجم الأشــخاص في ســنها ، ورغم محاولات رفضها إلا إنها وزوجها صمما على ذلك..

ثم توفي أبو زوجها ..و تكررت المحاولة مع حماتها .. إلا أن الأخيرة وجدت الفرصة سانحة ، أغلقت شقتها العزيزة عليها.. وانتقلت إلى العيش معهما ، من ناحية توفيرا للنفقات ، ومن ناحية أخرى ان يأخذ بحســـها ابنها الغالي وزوجته و أطفالهما ، بدلا من تلك الزيارة الوحيدة كل أسبوع .

ظنت في بادئ الأمر أنها سوف ترتاح قليلا ، فهي كانت موزعة البال بين طفليها وعملها و رعاية البيت و أمها ، ظنت أن حماتها سوف تتحمل على الأقل رعاية طفليها .. ولكن الأيام خيبت ظنها ، فما أن تســتفيق حماتها من نومها حتى تعد إفطارها الشــهي ، و تترك الطفلين أحيانا بلا طعام ، و أحيانا أخرى تعد لكل منهما شطيرة .. كانت تصرخ فيهما إذا ما أصدرا أي صوت و هما يلعبان في حجرتهما .

وحينما تصـــل إلى البيت كانت تعد طعام الغداء الذي جهزته في اليوم السابق .

كانت أحيانا تلاحظ أن طفليها قد بالا على أنفســهما .. و لم تتغير ملابسـهما ، و صـبرت على كل ما يحدث دون أن تشـتكي إلى زوجها .. كانت تريد أن تستمر حياتها الرتيبة كما كانت دون مشاكل .

ولكن أم زوجها أصـرت على خلق المشـاكل . فكانت تشـتكي إلى ابنها حينما تجد الفرصة سانحة :

إنا لســت الخادمة لهذا البيت ، و ســوف أعود إلى شــقتي حتى اســتريح من المعاناة في بيت ابني ، و اعرف معنى الراحة التي فقدتها منذ أن حضرت إلى هذه الشقة اللعينة .

و نبه الزوج زوجته إلى العناية بأمه ، و عدم إشـراكها في أعمال البيت ..وحاولت وفاء أن تفســر لزوجها أنها تقوم بجميع أعمال البيت ، و إنها كما يرى هو بعينيه تعد كل شـــيء بعد الظهر حتى يكون الطعام جاهزا حين عودتهما من العمل .

و مع تكرار الشكوى .. و تكرار التنبيه الودي من الزوج ، بدأت هي الأخرى الشكوى .. من إنها تجد بقايا الطعام ..و الأواني التي أعدت فيها الطعام في المطبخ غير نظيفة .. وإنها تجد المكان التي تجلس فيه حماتها قد امتلأ بقشـر الفاكهة التي تأكلها ، أو قشـر اللب الدي تتسـلى به أمام التلفاز .. وإنها لا تطعم أولادها أثناء الصـــباح، و إنها تتركهما يبولان على نفسيهما ، و لا تغير لهما ملابسهما .

مل الزوج تلك الحياة الجديدة التي غزت البيت ، شـــجارا يوميا و شكوى ، ولنفس الموضوع الذي لا يجد له حلا ..هو يحب زوجته حبا عظيما ، و أيضـــا يحب أمه التي بدأت في مرحلة الشـــيخوخة ، و لا يستطيع أن يغضب أي طرف منهما .. و هو يعرف جيدا أن طرفا من الطرفين لن يرضى عن أي حل ، فكل طرف يريد الانصاف لنفسه فقط ، و لا يريد أن ينتصر خصمه عليه .

و أخيرا قرر أن يكون هناك حل ثالث .. على الأقل يرضـــيه هو مؤقتا ..أن يأتي إلى البيت ليأكل ثم يخرج .. إلى أين ؟ ليس مهما .. أحيانا يجلس إلى المقهى ، وهو الذي لم يدخل مقهى في حياته .. و أحيانا يسير بلا هدى في الشوارع شارد الذهن ، ينظر إلى واجهات المحلات دون تركيز أو انتباه .. المهم ألا يعود إلى البيت إلا وقت النوم

و مع شعوره بالملل قرر أن يشتري تاكسي ، في الصباح يأخذ زوجته ويوصلها إلى عملها صباحا ، وكذلك بعد انتهاء عملهما ، وبعد أن يتناول وجبة الغداء يذهب بالتاكسي ليكسب بعض الجنيهات من ناحية ، ويتسلى بتوصيل الزبائن إلى اي مكان ، فلم يكن هدفه الربح ، بقدر ما كان هدفه البعد عن البيت ، و التسلية .

حتى يوم الجمعة الذي من المفترض ،أن يجلس فيه في البيت يلعب مع أولاده ، أو يتحدث إليهم ، أو يخرج معهم إلى أي مكان للنزهة .. كان حين يســـتفيق من نومه يتجه إلى الحمام و يتناول إفطاره ، و يرتدي ملابســـه و يخرج .. كانت وجهته هذه المرة محددة كان يذهب إلى أحد المساجد الكبرى في القاهرة ليقضي صلاته ، ثم يقرأ القرآن ، أو ما يقع في يده من كتب دينية ، مرة إلى الأزهر الشـريف ، أو سيدنا

الحسين ، أو السيدة زينب ، أو السيدة نفيسة ، أو السيدة عائشة ، أو جامع عمرو بن العاص .. من العاشـــرة إلى ما بعد العشـــاء ، فهذه المســـاجد لا تغلق أبوابها أبدا ليلا أو نهارا.. و ذلك ما كان يريحه من التفكير في تلك المشكلة التي لا حل لها .

وحينما سألته زوجته عن خروجه المستمر ، و هروبه من البيت في كل الأيام حتى يوم الجمعة .. نظر إليها نظرة طويلة تدل على الحيرة ، و لم ينطق ببنت شفة ، و أشاح بوجهه عنها .. و كأنه يرفض الحديث معها أو الحديث في هذا الموضوع .

أصبح الوضع لا يطاق في هذا البيت .. و قررت هي الأخرى أن تأخذ قراراً .. و كان قرارها الغريب والمفاجئ أنها ســـوف تذهب إلى زيارة والدتها لفترة من الزمن حتى تســـتريح أعصـــابها . هكذا قالت لزوجها ، وهما يتحدثان في غرفة النوم ، فيما يحدث في هذا البيت من مشاكل .

ورغم الاعتراض في بادئ الأمر ، إلا أنه ومن مبدأ حبه لزوجته وافق على مضض .

وذهبت إلى بيت أمها ، حاولت الأم أن تســتدرجها في الحديث ، ولكنها كانت تلتزم الصــمت في كثير من الأحيان ، و تأخذ في البكاء ، دون أن تبوح لأمها عن مشـاكلها ، فهي تعرف جيدا أمها ، وإنها سـوف تعنفها و تلومها ، حتى ولو لم تكن مخطئة .

امتدت زيارة الزوجة إلى أمها أســـبوعا ، و قررت فجأة العودة إلى بيتها .. و إلى زوجها . و ما إن فتحت الباب حتى شـــمت بعض

الروائح الكريهة .. ووجدت الشـقة التي اعتادت أن تكون في أبهى حللها كمقلب الزبالة التي تنتشر في شوارعنا المختلفة .. و صمتت مرغمة.

اســتقبلتها حماتها بترحاب مبالغ فيه في أول الأمر ، ثم بدأت في لومها بعنف على هجرها بيتها وزوجها .. و صمتت و لكن مع ابتسامة غريبة على وجهها .

أودعت ابنها وابنتها عند أحدى الجارات .. و بدأت العمل الشاق المضـــني في إعادة الشـــقة إلى حالتها الأولى قبل أن تغادرها .. على حالتها الطبيعية التي كانت تعتاد عليها منذ أن تزوجت ، كما علمتها أمها .

وأعدت الطعام .. وحينما حضـــر زوجها في الليل رحب بها ترحيبا حارا ، و نظر إليها نظرة عتاب ،مع ابتسامة ودودة ، وقال لها :

نورت بيتك . البيت من غيرك .

وقاطعته في ابتسامة :

منور .

جلس إليها أثناء الليل وهو يتودد إليها ،محاولا أن يهدأ خاطرها ، شارحا لها أن أمه ست كبيرة ، ولا يستطيع أن يعيدها إلى بيتها .. فهذا منافي للقيم التي أعتدنا عليها .. ولم تجد عندها غير الصبر .

في الصباح كانت الأم قد أعدت مفاجأة من العيار الثقيل .. كانت تجلس في الصالة و بجانبها شنطة ملابسها . لقد قررت الأم أن تعود إلى بيتها ، أن تترك بيت ابنها حتى تســـتريح ، و يســـتريح الجميع من مشاكلها ، و تمارس حياتها الطبيعية .

خرجت وفاء من حجرتها لتجد هذا المنظر الغريب عليها .. قالت لحماتها :

ما هذا ؟

قالت لها و الدموع تنساب من عينيها :

سأعود إلى بيتي . ، أظن إنني سببت هذه المشاكل التي بينك و بين زوجك .

جلست وفاء إلى جانبها ، و هي تمسح دموع حماتها و قالت لها :

لا ، هذا هو بيتك ولن تذهبي إلى أي مكان .. أنا ابنتك أ ليس كذلك . و أجهشت الأم بالبكاء .. فشتان بين معاملتها لها ومعاملة وفاء لها .

و نادت وفاء على زوجها حسين ، وقالت له بلهجة آمرة : ضع الشنطة في الحجرة ، فلن تخرج أمي من هذا البيت أبدا .

سنوات و سنوات مضت ، و تخطت تلك السنوات العشرين ، و لكن ما الذي فكرني بالبداية ، إنه ابني عماد حين جاء إلي فرحا يكاد يطير من شدة السعادة ، طلب مني أن أذهب معه لخطبة الفتاة التي أحبها و أحبته ، و التي يريد أن تكون شريكة فراشه طوال العمر .

الحق بقال إنني أيضا فرحت أشد الفرح ، أخيرا أصبح هذا الطفل رجلا يريد الزواج ، يريد أن تكن له أسرة . أخير سوف أنفض الحزن عن كاهلي ، أخيرا سوف يستقر هذا الطائر .

لبست فستاني الوردي الذي أحضر به أفراح زميلاتي الصغار المقابلات على الزواج ، و أبناء زميلاتي الكبار مثلي ، فستاني المفضل الذي احفظت به للمناسبات ـ و خلعت ثوبي الأسود الذي لازمني طوال حياتي ، ذلك اللون الذي أعرفه منذ ارتديه منذ عشرين عاما أو يزيد ،

و ركبت السيارة بجوار ابني ، تكاد الفرحة تسابق السيارة إلى بيت العروس المنتظرة ، و يكاد قلبي يقفز من صدري لمعرفة اختيار ابني .

ضرب الجرس ، و ما هي إلا لحظات من الزمن ، تحولت الفرحة إلى كابوس مؤلم ، و تسمرت في مكاني كأنني تمثال حجري ، ثم بلا وعي عدت أدراجي هبوطا على درجات السلم ، أقفز بلا وعي لا أعرف درجة أو درجتين المهم أن أهرب مما رأيت ، و ابني ينادي علي أن أقف ، و لم استجب لندائه ، لقد كانت دنيتي غير الدنيا التي نعيش فيها ، .دنيا الكابوس ضباب سوداء .

و ركبت السيارة ، و ركب بجواري ابني ، حاول أن يحدثني ، و لكني لم أنتبه لكلمة واحدة من كلماته ، و ما أكثر كلماته التي تريد أن تستفسر عما حدث ، عن سبب هروبي .

كانت قطرات الدمع تنساب من عيني قطرة بعد قطرة ، أظن أنه لمحها ، و لهذا سكت و تركني حتى وصلنا إلى شقتنا ، خرجت من السيارة ، و ذهبت إل الشقة ، فتحت الباب ، و ذهبت إلى غرفتي , أغلقت على نفسي ، و لم أستجب لتوسلاته .

كان شريط الذكريات قد عاد بي إلى الزمن البعيد ، رغم إنني تخيلت إنني نسيته ، أنه دفن في عقلي الباطن . و لكنه الآن يظهر ، ليعكر صغو حياتي المطمئنة الهادئة . .

كنت شابة صغيرة تخطو خطواتها الأولى في الجامعة في كلية الطب ، و التقيت به ابن الجيران وحيد أبيه مثلي ، أمه قد رحلت عن دنيانا مثل أمي ، نفس الظروف ، كانت لقاءتنا غالبا تتم على السلم أمام الاسانسير - ثم نفترق كل في اتجاهه .

كان هناك أشياء تحدث رغم أن والدي يأخذني كل يوم إلى كلية الطب ، عمله و دراستي .

بدأت نيران الحب الخفية تزداد لهيبها سعيرا في قلبي و في عقلي ، في قلبه و في عقله ,

سافر أبوه إلى عمله الجديد في الكويت على أن يأخذه في أقرب فرصة ليكون معه ، و يكمل دراسته في بلاد الغربة .

كانت شقته الخالية من الحياة هي عش غرامنا ، بدلا من السير في الشوارع متشابكي الأيدي ، يدلا من أحاديث الهاتف التي تبث لواعج أشواقنا الملتهبة .

معسول الكلام أسكرني ، فأصبحت مخمورة في هواه ، هو حياتي ، هو دنياي ، أصبحت الدنيا هو و أنا ، وما حولنا أشباح و أوهام .

و نسيت نفسي و نسى نفسه ، و تسلم مني أعز ما أملك ـ تسلم مني جسدي يفعل فيه ما يشاء ، و أنا فرحة مسرورة ، ليس مرة بل مرات ، و كنت راضية فقد وعدني بالزواج ، و عدني حقا ، بل أراد أن يكون زواجنا على ورقة من نلك الأوراق التي يكتبها الشباب ، و لكني رفضت ، قلت له أن يتقدم إلى أبي ليخطبني ، و لكنه لم يفعل لا أعرف لماذا ؟ .

و فجأة جاءته التأشيرة اللعينة ليلتحق بأبيه في غربته و يتركني وحيدة ، أعاني كثير من الآلام ، الآم فراقه ، ألام ما احتفظ به في بطني .

تركني على أمل أن يأتي في الإجازة الصيفية ، و يتقدم لخطبتي ، و طال الأمل ، و تبددت الأحلام .

كنت ساهمة شاردة لا أعي ما يدور حولي ، و لاحظ والدي ذلك ، و سألني فقلت له :

لا شيء .

فسكت ، و لكن السؤال تكرر مرة ثانية و مرة ثالثة ،

ثم قال لي بنبرة فيها من الشدة و اللين مما اربكني :

أ تعرفين ما عملي ؟

قلت له ، و أنا حزينة :

دكتور نفساني .

قال لي هذه المرة بلهجة خشنة :

ما بك .

واضطررت أن أبوح له بما حدث ، صمت ، في اليوم التالي اصطحبني إلى دكتور أمراض نسا .. كشف علي .

قال له الطبيب :

مبروك زوجتك حامل .

هز رأسه ، و اصطحبني مرة أخرى للعودة إلى البيت ، و قرر أن يزوجني من عامل البوفيه العجوز في عيادته .

أخذ يتابعني في حياتي ، في دراستي ، في صحوي ، في منامي ، حتى انهيت تعليمي ، و ابني في حضني ، و أصبحت دكتورة أيضا يشار لها بالبنان .

توفي زوجي ، و أصبح ابني يحمل اسم ذلك الرجل المتوفي الذي لم يلمسني ، بل لم يدخل بيتي ، زواج يلم الفضيحة ، و يستر العار الذي جلبته علي ، و على أبي ، و ليأخذ ابني اسم أب .

ربيت ابني تربية فيها من الحزم و اللين ، و ها هو يودع كلية الطب مثلي ، و يباشر عمله ، لقد أصبح رجلا .

****

فجأة و جدت هذا الرجل أمامي في عيادتي الخاصة ، دفع ما طلبته سكرتيرتي كأنه مريض جاء للكشف .

حاول أن يشرح لي ، و لكنني قاطعته وصوتي مملوء بالغيظ

ماذا أقول لابني ، أقول له أنه نتيجة خطأ حدث قبل ولادته ، و أن هذه البنت التي تريد أن تتزوجها هي أختك ، سوف يحتقرني أبني ، بل سوف يصاب بجنون حتما ، أنت تريد أن أفقد ابني الذي خرجت به من الدنيا ، أرحل ، عد إلى غربتك ، وخذ ابنتك معك .

قال وهو يغالب الدمع :

سوف أشرح له إنني تزوجتك منذ أكثر من عشرين عاما ، و رحلت إلى الغربة مع أبي للدراسة ، و العمل ، و إني تزوجت في الغربة ، و هذه البنت هي أختك .

و صرخت به :

أنت مجنون ، لا تحب إلا نفسك ، ما ذنب أولادنا ، أرحل ، أرحل .

و ضغط على الجرس ، فدخلت السكرتيرة ، قالت لها :

أعط الاستاذ ما دفعه ، و إن جاء مرة أخرى فلا تدخليه .

وقف ينتظرها تحت البناية ، و حينما رأته ، قالت له :

إذا اقتربت مني سوف استدعي الشرطة ، و إذا اقتربت من ابني سوف أبلغ عنك ، سوف اصرخ .

و لم تنتظر ذهبت إلى قسم الشرطة ، و قدمت بلاغ أن هذا الرجل تحرش بي في عيادتي ، و في الشارع .

كان ابنها ينظر إليها ، و لا يستطيع أن يبوح ما في صدره ، و لكنه في يوم و هما يجلسان على مائدة الطعام قال لها :

أظن أنك تعرفين هذا الرجل ، و سأقول لك ما لا تريدين البوح به ، أن هناك علاقة ما كانت بينكما .

حاولت الأم أن تتلافى الحديث ، و لكنه قال لها بنبرة تهديد :

إذا لم تقولي لي الحقيقة ، فسوف أترك البيت ، بل سوف أتزوج من هذه الفتاة .

صرخت فيه ، لطمته على وجهه بشدة :

هل تريد أن تتزوج أختك ؟

أصابه الذهول ، بل كاد يغمى عليه ، و أخذ يهلوس كالمجنون :

أختي ، أختي ،أختي ، كيف ؟

قالت له و هي تذرف دموعها و تتشنج :

أنه أبوك ، لقد تزوجنا زواجا عرفيا ، و لكنه رحل مع أبيه ، فزوجني جدك بفراش يعمل عنده ليتدارك الفضيحة .

لم يدرك ماذا قال ، و لكني ترك البيت و خرج .

في اليوم التالي جاء و معه الفتاة ، قال لأمه :

إذا كانت هذه أختي فلتسكن معنا .

قالت له :

و هل يتركها أبوها ؟

قال بهدوء :

لا يهم ، سيشعر بخطئه ، و سيحاول أن يصلحه .

في عصبية قالت الأم :

لا ، لا تظن إنني ســـأوافق على أن أتزوج منه أبدا ، من يخون مرة يخون ألف مرة ، اذا كنت تريد أن تذهب وتعيش معهما فاذهب ، أنا لا أعرف هذا الرجل ، و لا أريد أ، تكون لي صلة به .

و احتار ابني ماذا يفعل ؟

وجاء أباه و معه ابنته ، و قبل يدي ، و ذرف الدموع مدرارا ، و لكني كنت كالصنم الجلمود الذي لا حياة فيه .

و قلت لابنته بعصبية :

إذا كنت تريدين أنت تعيشي مع أخوك ، فأهلا بك في بيتنا ـــ و أهلا بـه في بيتكم ، و لكن لا أريد أن أرى هذا الرجل ، مهما كانت مبرراته .

قالت لها:

أنا سأعيش مع أبي ، و أخي سيعيش معك ، و إذا أردنا أن نلتقي ، فلقائنا في الخارج بعيدا عن البيوت ، حتى لا يغضـــب أحد منكما . أنا أحب أبي ، و احترمك ، و أخي يحبك ، و يحترم أبي .

لياليها الرائعة

رغم تلك العاهة التي اشتهرت بها منذ صغرها إلا أن منبر تقدم لأهلها طالبا الزواج من إيناس البكماء .

و استغرب أهلها ، لقد بدأت تدخل مرحلة العنوسة ، فلم يتقدم أحد لخطبتها ، وسأله أباها وهو مضطرب :

هل تعرف عاهة ابنتي .

قال بثقة زائدة :

أعرف

و رغم أنها خلال جلسة التعارف ، و من ثم التلميح للخطوبة ، إلا أن إيناس اعجبت بشخصية منير اللبقة ، و لهذا وافقت على الخطوبة .

سألته في خروج لهما للتنزه ، في دفتر كان معها :

لماذا خطبها ؟

أمسك بالدفتر الذي به السؤال ، ثم ضحك ، و لأنه يعرف إنها تسمع جيدا .. قال لها وهو يبتسم :

بصراحة كل الصراحة ، لقد راقبتك فترة طويلة أثناء خروجك و ذهابك إلى عملك و عودتك ، من خلال ركوبك المواصلات ، سأقول لك إنني أعجبت بشخصيتك ، برقتك ، لقد دخلت قلبي من أول نظرة ، و شعرت إنني سوف أكون سعيدا إذا اقترنت بك ، و ما تعتبرينه عاهة سيكون سبب سعادتي و سعادتك ، و لهذا قررت أن أتقدم لخطوبتك .

كتبت له :

كيف سيكون التفاهم بيننا ؟

ابتسم و نظر في عينيها و قال لها :

أظن أنه في البداية سيكون التفاهم عن طريق هذا الدفتر ، و لكن بعد فترة وجيزة ، سوف ألغي هذا الدفتر من حياتنا ، يكفيني أن أنظر في عينيك فاعرف ماذا تريدين ، يكفي أت تنظري إلى شفتي فتعرفين ماذا أقول ؟.

ابتسمت، ثم نظرت إليه بشغف ، و لم تكتب كعادتها

عادت إلى البيت و هي تكاد تطير من السعادة ، ترقص طربا من غير صوت ، امسكت بيد أختها و أخذت تدور بها ، و كأنها ترقص من السعادة ، و هكذا فعلت مع أمها .

شعرت الأم بالطمأنينة على مستقبل ابنتها مع منير هذا الشاب الهادئ .

قالت الأم ذات مرة لمنير خطيب ابنتها :

لقد ولدت هكذا ، و لكني حرصت على أن ابذل جهدي في تعليمها حتى تستطيع التفاهم و التواصل مع الجميع .

لم يمض وقت طويل حتى حدد موعد عقد القران ، و الدخلة ، فقد كان منير جاهزا ، فمنير لديه الشقة ، و هي مفروشة جيدا ، و التغيير الوحيد الذي رأته أمها هو تغيير غرفة النوم .

و رغم محاولتها عدم التغيير لأي شيء في البيت إلا أنه قام بتغيير غرفة النوم .

رفضت كل ما قيل لها ، إنها لا تريد شبكة، سوف تشتريها فيما بعد ، يكفي خاتم الخطوبة ، و أضافت أمها حلق و غويشة و سلسلة فقط .

حاولت الأم أن تغالي في طلبتها ، و لكن إيناس رفضت كل محاولتها ، و كتبت لأمها :

لقد لمست حبه لي ، و حرصه على سعادتي ،فلا يهمني أبدا ما يقدم من شبكة أو مهر ، يكفيني أنه ارتضى بي .

و حددت الدخلة

بعد أن انتهى الفرح ، سافر الاثنين لقضاء شهر العسل في احدى القرى السياحية على البحر الأحمر .

بعد سبعة أشهر من الزواج أعلنت لوالدتها إنها حامل في الشهر الثالث ، و إنها سوف تنجب بنت .

كانت أمها و اختها تأتي يوميا للعناية بالشقة و تنظيفها ، و اعداد الطعام لها و لزوجها .

لم يشعر منير بأي تغير في حياته ، فزوجته تذهب إلى العمل ، و أمها تعد لهما الطعام لأسبوع ، و تضعه في الثلاجة ، و ما عليهما إلا أن يخرجا ما يريدان ، و يأكلا منه .

لاحظ منير في الشهر التاسع أن زوجته لا تستطيع الحركة ، فأخذ لها اجازة مرضية ، قال لها إنه لا يحتاج إلى راتبها . قالت له إنها تعمل ليس من أجل الراتب بل من أجل قتل وقت الفراغ ، ووافقت على الاجازة ، و كتبت لي لم يعد هناك وقت فراغ في حياتي ، فأنت كل وقتي .

و أخيرا انجبت بنت جميلة دقيقة الملاح ، و لكنها حسب قول الطبيب إنها (الأم) لن تعيش طويلا . و إنها يجب أن ترتاح كل الراحة من أي عمل ، فقلبها ضعيف .

مضت السنوات و انجبت إيناس ابنا ليؤنس وحدة أخته ، و أصبح الأب سعيدا بوجود روز و ناجح . يلعبان فيملئان البيت حبورا و ضجيجا ، أصبح في البيت حياة مختلفة .

في يوم ما ، هو جالس يتحدث معها قالت له أشعر بدوخة شديدة ، لم يطل الأمر ، استدعى الاسعاف ، و طلب من الجيران العناية بالأولاد إلى حين حضور جدتهما.

مكثت إيناس في المشفى ما يقرب من أسبوع ، و فاقت من الغيبوبة ، ضحكت لمنير زوجها ، و طلبت رؤية طفليها ،

بعد أن رأت طفليها أسلمت الروح .

أصبح منير ساهما شاردا ، لقد رحلت من كانت تؤنس لياليه ، كانت تداعبه دائما من خلال دفترها الأحمر الصغير بكلماتها البسيطة الرقيقة ، فيضحك ، و يبادلها كلمات الحب و ليالي الحب الرومانسية ، لم يشعر أبدا أن شيئا يعوق سعادتهما .

أخذت حماته ابنته و ابنه عندها في بيتها لتعني بهما ، و في نفس الوقت كانت تعد لزوج ابنتها المرحومة ما يقيم اوده .

بعد أن هدأت نفسه قال لحمالته :

أريد أولادي أن يعيشا معي

قالت له بحنان :

سوف احضرهما لك ، و لكن من سيعتني بهما ، إنهما يحتاجان إلى رعاية ، فهما صغاران ، و أنت دائما مشغول .

قال لها وكانه يحدث أمه :

سوف تأتين لتعيشين معي مع أولاد ابنتك المرحومة .

نظرت إليه باستغراب شديد ، و قالت في دهشة :

هل نسيت إنني لدى ابنة تحتاج إلى رعاية أيضا .

قال لها على الفور:

لا لم أنس ، و لتأتي ابنتك معك أيضا سأجهز لكما غرفة في البيت ، و على فكرة ، أنا في شغلي معظم الوقت ، و حينما أكون في البيت فأنا في مكتبي أو في حجرتي .

قالت له و قد أعجبتها الفكرة :

وشقتي

و قاطعها بسرعة :

من الممكن أن تؤجريها

و هكذا انتقلت الأم إلى بيت منير و معها ابنتها ، تعتني بأولاد ابنتها المرحومة و ابنتها الطالبة في السنة النهائية في الجامعة .

اشترى منير لأخت زوجته سيارة لتكون تحت أمرتها في قضاء حاجيات البيت ، أو ما يحدث من طارئ ، أو الذهاب إلى الجامعة ..

كان يخرج في الصباح ، و لا يأتي إلا قرب منتصف الليل كل يوم حتى يوم الجمعة .

كانت الشقة تخبره كل ركن من أركانها بمدى السعادة التي كان يعيشها ، بمدى الحب الذي عشش في جدران البيت ،

قالت له أخت زوجته :

البنت و الولد يريدان أن يخرجا للتنزه معك .

قال لها :

معك سيارة خذي أمك و الأولاد و اذهبوا إلى أي مكان .

قالت له :

إنهم يريدان أن تصحبهما أنت في رحلة ، انظر لمواعيدك ، و سوف أجهزهما لك .

مضت الأيام سريعا ، و هي تأخذ الماجستير ، و ها هي تكمل دراستها العليا ، و تأخذ الدكتوراه . و كبر الطفلان ، أصبحا شاب و شابة .

تقدم لخطبتها أكثر من زميل لها ، و لكنها كانت ترفض بحجة اكمال دراستها العليا ، أو بحجة أنها لا تريد أن تترك أمها ، أو بحجة أن الولد و البنت يحتاجان إلى رعاية .

ذلت يوم استيقظت الأم لإعداد الفطور ، و لكنها و جدت منير مريض ، اسرعت بإحضار الدكتور ، قال لهم :

نزلة برد شديدة ، طبعا يا حاجة عرف ما سيوف تعدينه ، شوربة ، و عصير ليمون ، و راحة تامة لمدة ثلاثة أيام .

ضحكت الأم ، و جلست بجانبه تحدثه :

منير يا ابني ، لقد أصبحت ست عجوز ، و لن أعيش بقدر ما عشت ، و لهذال أطلب منك طلب ، و أرجو ألا تخيب ظني

قال لها :

كل طلباتك أوامر ، أنت أمي .

قالت له :

سأطلب منك أن تتقدم لأبنتي ، أن تتزوجها .

قال باستغراب :

و لكنها هي التي ترفض العرسان ، رغم أن كل من تقدم لها مناسب لها في الجامعة .

و ابتسمت و هى تتمتم :

لن تقول لك أحبك ، يكفي أن تعرف من معاملتها لابنتك و ابنك ، لرعايتها لهم ، لحنانها كأنهما أولادها .

حينما جاءت سارة إلى البيت و معها الأولاد ، دخلت غرفته ، و منعت الأولاد من الدخول حتى لا تصيبهم العدوة.

قال لها :

أريد أن أخذ رأيك في موضوع .

قالت له :

ماذا تريد ؟

قال وهو يبتسم :

الأولاد قالوا لي أنك أمهم ، و لهذا سوف أتقدم لخطبتك من أمك ، ما رأيك في هذ؟

ووضعت رأسها في الأرض ، و أحمر وجهها فاستطرد يقول لها :

تصوري أنا كنت خايف أقول لك ، زي ما أنت خائفة تبوحي بسرك .

و أسرعت نبضات قلبها ، و أسرع نبض قلبه .

قالت الأم بحنان لهما :

لا شيء سيتغير في الشقة .

قالت سهام لأمها :

لي الحق في تغير بعض الأشياء في البيت ، حتى أشعر بالراحة ، و يشعر هو بأنه تزوجني .

قالت لها أمها :

و ماذا تريدين أن تغيري ؟

ضحكت و قالت :

غرفة النوم فقط .

قالت الأم و هي تضحك : مجنونة كأختك ، بل سوف تقولين إنك لا تريدين مها أو شبكة .

قالت سارة و هي تضحك :

كأنك تقرأين أفكاري

قالت لها أمها : هكذا قالت أختك من قبل .

و تم الزفاف ، و سافر الجميع هذه المرة في رحلة أسبوع العسل ، الذي أخذته بصعوبة من الجامعة .

رقم في حياتها

تذكرت أغنية عبد الحليم حافظ " حبيبها لســـت وحدك " تلك كانت مشـكلة أمينة ، و مشـكلة من يصـادقها .. يوم واحد أو عدة أيام ، ويمضي إلى سبيله ، ليأتي غيره ، و تشاهد بصحبة الآخر تبدل أصدقائها كما تقول كما تبدل فستانها ، أو حذائها .

الحب مشـكلة هذا العصـر ، وكل العصـور منذ أن خلق الله هذا الكون ، و أودع فيه جنسين متفقان في كل شـيء مختلفان في كل شـيء .

و مشـكلة هذه الفتاة هي الحب ، فهمها للحب ، إن جاز أن نسـمي تلك العلاقات العابرة حبا ، لقد وجدت نفسـها في وسـط تيار قوي يجذبها إلى كل اتجاه ، فتسير حسب ما يعن لها في هذا الاتجاه ، كأنها ريشـة في مهب الريح ..

كلنا و لا شـــك نحب ، و نعرف أن من أهم معالم الحب هو الإخلاص والثبات و الوفاء .. و ليس الانتقال من ذراع إلى ذراع .. و ندعي أن في كل قلب من القلوب نصـــيب لنا ، هكذا كان مفهوم الحب عندها .

أقســـمت ألا تســـتقر حتى تجد في النهاية الرجل المخلص الذي يحبها .. ليس لجمالها ، ليس لثروتها ، و إنما يحبها هي من أجل الحب نفسه ولا شيء غير الحب ، وهو مطلب صعب المنال، حينذاك تستقر في حياتها ، و تهدأ مع فارس أحلامها ، و تعيش معه في سعادة دائمة ، لم تراها طوال حياتها .

كانت حين تتحدث مع أحد على انفراد – وكل واحد بدوره – تقول بكل صراحة إنها سوف تخوض التجارب ، تجربة تلو التجربة ، و إنها في النهاية ســـوف تحقق حلمها ، و اعتبرها الجميع أنها تخوض امتحان ، و إنها تنتقل من امتحان إلى امتحان ، و كل امتحان يحمل رقم جلوس متسلسل ، و لكن الامتحان هو نفس الامتحان الذي تدخله كل مرة ، ولا جديد .

و عرف الجميع إنها تتسلى ، فلما لا يتسلون مثلها .

كنت اســـمع من أصـــدقائي عن هذه الفتاة التي يعتبرها الجميع مســـتهترة في حياتها ، و لكني رغم ذلك ، كنت أراها كثيرا ، لم أجلس معها في مكان واحد أبدا حتى تلك اللحظة ، فقد كانت عادتي أن أذهب إلى الجامعة ،أحضر محاضراتي ، و أجلس في المكتبة بعض الوقت ، ثم أتناول الشـــاي مع بعض الشـــطائر في الكافتيريا ، و بعد انتهاء

محاضـــراتي أعود إلى البيت . أو إلى مطبعة أبي إن كان هنا كتاب أو مذكرة لدكتور ما .

عرفت فيما بعد أنها تسكن في نفس المنطقة التي أسكنها ، فذات مرة لمحتها تتحدث مع أختي .. لا أدري كيف كنت أنظر إليها ، نظرات يملأها الســخط و عدم الرضــا ، و تمنيت أن أقول لأختي أن تبتعد عنها لأن الجميع يتحدثون عنها لسوء سلوكها ، و لكني لم أفعل .فأنا أعرف أختي جيدا وعنادها وتربيتها الحرة المستقلة ، و أنها لا تفعل إلا ما تقتنع به .

و في نفس الوقت كان بريق عينيها يصـــرخ بجنون .. و كأنه يريد أن يقول لي :

أرجو أن تفهمني ، قبل أن تحكم علي .. لا تعذبني أنت الآخر بهذه النظرات التي تنم عن الاتهام .

تكرر حضورها إلى منزلنا لزيارة أختي ، و تكرر انصرافي عن المنزل وقت حضورها ، قد يكون ذلك مقصودا ، و لكنه بالنسبة لي لم يكن مقصـــودا ، حتى أن أختي نبهتني إلى ذلك أكثر من مرة ، و لكني مضيت في هذا الطريق إلى نهايته .. لا لقاء مباشر .

و إذا كانت طبيعة الأرض تتغير ، فصـــول أربع تختلف في طقســها ، بين البرد و الحر و الاعتدال .. و منطقة الاعتدال هي المنطقة الطبيعية التي يمر بها الإنسان في حياته ، و يحب أن تستمر .. فالتشدد يفقد المرء كثير من الأشياء الجميلة من حوله .. قد يكون مفيدا أحيانا ، و

لكن ليس كل الوقت ، و التردد أيضا يفقد الإنسان الكثير من مباهج الحياة .

ذات يوم وجدت نفسي أعاملها بجفاء ، و سألت نفسي أ ليس من العدل أن أعرف ظروف حياتها التي تعيشها ، و تجعلها تتصرف بهذه الطريقة ؟..

و كان السؤال الثاني .. هل أنا أهرب منها هكذا ، أم أهرب من نفسي ؟

أسئلة كثيرة تداعب الفكر حينما يريد الفكر أن يتطور ، يجد نفسه في صراع يستمر إلى أن ينتصر أحد الطرفين .

لا أعرف كيف انتهى الخلاف بيني و بين نفسي و بينها ، و إن كنت أذكر تلك الأيام التي بدأت منها نقطة الاعتدال في المعاملة ، كان الصيف في هذا العام شديد الحرارة ، و كنت أجلس في حجرتي بشورت عندما جاءت إلى منزلنا لزيارة أختي .. سمعت طرقات باب حجرتي ، فأذنت للطارق بالدخول ، فإذا بي أفاجأ بها بصحبة أختي ، و لم يكن هناك ما يدعو لعدم دخولها ، و أحسست لأول وهلة إنني ظلمت السينما المصرية أشد الظلم ، عندما تربط البطل بالبطلة ، تمهد للقاء لم يكن في الحسبان وقوعه ، و لكنه يحدث ، مصادفة أحيانا ، أو تعمد أحيانا أخرى .. لقد وجدت إن ما يحدث في السينما يحدث في الحياة العادية .

فالكاتب السينمائي يأخذ من الحياة ، ويضيف إليها رتوش من عنده لتكون القصة .

بعد قليل انصـــرفت أختي لتأتي بواجب الضـــيافة و المرطبات ، و ســـاد الصـــمت طويلا في الحجرة ، صـــمت تتوقعه النفس لا تمله ، و خصوصا إذا لم يكن مع الطرف الآخر أي حوار من قبل ، و كان في إمكاني أن أطيل هذا الصمت إلى ما لا نهاية ، أو إلى أن تحضر أختي ، و لكنني فضلت أن أنهي الصمت و ألا أطيل مدته عن ذلك .

سـألتها عن سـبب تشـريفها حجرتي المتواضـعة ، مع إنها تجلس في حجرة أختي دائما .. لاحظت القلق في وجهها ، و في كلماتها التي أجبتني بها .. قالت :

ســمعت أن في مكتبتك بعض القصــص ، فطلبت من أختك أن تأتي لي بواحدة أتسلي بها وقتي فراغي ، و لكنها طلبت مني أن أستأذنك أولا .

و الإنســـان عادة ما يتذكر – في مثل هذا الموقف – ما قيل له حول هذه الشخصية ، و في هذا الموضوع ، يتذكر ما قيل فترتبط بذهنه نتائج محدودة يدور حولها ، كأنه كوكب تابع في فلكها ، و لعل ذلك هو نبع الابتســامة الســاخرة التي ظهرت على وجهي ،ابتســامة لها أكثر من معنى ، و يبدو أنها أحست بذلك ، حينما سألتها فجأة:

أي نوع من القصص تريدين ؟

أحمر وجهها خجلا ، ولم تجيب عن سؤالي ، فتابعت توضيح ما أقصد من سؤالي :

قصـــص تاريخية .. قصـــص عاطفية .. قصـــص اجتماعية .. قصص بوليسية .. قصص أطفال ..

و تلعثمت في الكلام ، فقد شعرت من طريقة كلامي بالسخرية منها ، فهي تعرف إنني زميل لها في الكلية ، و لكن في فسم آخر ، كلمات محبوسة في داخلها ، شفتان تتحركان دون إصدار صوت ، همهمة غير مفهومة ، وكأنها في هذا الموقف صارت مخلوقة غير التي سمعت عنها .. فقد قيل لي إنها تملك مقدرة عجيبة على التحدث .

أقول لك الحق لقد صعبت علي في موقفها هذا ، مددت يدي إلى مكتبتي ، و أعطيتها كتابا ، و ليس قصة ، لا أعرف أيضا لماذا فعلت هذا ، مدت يدها لتأخذه مني دون أن تنظر إلى العنوان ، في وقت دخول أختي .. شربت عصيرها و استأذنت و خرجت .

حسبت أن الموضوع قد انتهى عند ذلك الحد ، و إنني لم أخل بما وعدت به نفسي ، ولكن ذلك لم يحدث ، فبعد يومين عادت لترجع الكتاب ، متسائلة عن نوعيات الكتب التي في مكتبتي ..

و بدأ الحديث يدور بيننا مقتصرا في أول الأمر عن الكتب .. ولكنها وقفت أمام مكتبتي ، و بدأت تقرأ عناوين الكتب ، ثم قالت فجأة .. يوجد في مكتبتك كثير من القصص العاطفية .

أقول لكم إنني أصبحت في مشكلة .. إنها تريد الحديث معي بأي طريقة كانت ، أحسست في بادئ الأمر إنها مريضة ، و إنها تريد مني أكون أخصائي نفسي لها .. هل ليعالجها .. أم لتتسلى هي به في وقت فراغها ، كما تسلت مع غيري .

قالت لي و بصراحة شديدة :

أعرف أنك تتحاشـــى الكلام معي لأنني أتحدث مع كل الشـــباب و على انفراد ، و لكن أنـا لا أتكلم معهم إلا داخـل أســـوار الجـامعـة ، و إنني متى خرجت من الجـامعـة لا أعرف أحد من هؤلاء .. قل إنني أسلي نفسي ، و لكنني أبدا لست مستهترة .. أنا لم أقابل أحد ، ولن أقابل أحد خارج حدود الكلية ، رغم ما يشيع الجميع عني .

طلبت مني أن نتقابل لأنهـا تريـد أن تبين لي ظروف حيـاتهـا ، و لكني رفضـــت ، مذكرا إياها بما قالت منذ قليل من إنها لا تقابل أحد خارج أسوار الجامعة ، و أظن أن رفضي هذا قد أصابها إصابة مباشرة في الصميم ، إصابة قاتلة ، و لكنها تمالكت نفسها .. ثم سألتني

ألا يظن بي والديك بعض الظنون ؟

قلت لها بلهجة حازمة ، والدي يثقان بي و يثقان في أختي ، و لنا حريتنا الكاملة في أن نفعل ما نشـــاء بشـــرط ألا يكون هناك أي خطأ ، و أظن أنهما لا يعرفان شـــيئا عنك ، كل ما يعرفاه إنك زميلة أختي ، لا زميلتي ، و أن دخولك عندي هدفه البريء هو اســـتعارة بعض الكتب لمليء وقت الفراغ الذي تشـــعرين به ، و أنا شـــخصـــيا لن أتجاوز هذا الهدف، و لن أخون ثقتهما في .

قلت لي و الحزن في عينيها :

يا بختك .. إنني أعيش مع أمي بعد أن انفصلت عن أبي ، أعيش معها و مع زوجها و أولادهما و كأنني ضيفة في هذا المنزل .

دخلت أختي أثناء الحديث ، فساد الصمت بعض الوقت ، قلت لها و أنا أدعو أختي إلى الجلوس ..

ذ أكملي ..

نظرت إلي في دهشـــة و اســتغراب .. و كأن ما كنت تريد أن تقول كان لي وحدي .

قالت :

انفصــل أبي عن أمي ، وكنت صــغيرة ، و عشــت مع أبي فترة صـــغيرة ، لقد أدخلني أحد المدارس الداخلية ، لأن زوجته الجديدة كانت لا تريـديني في بيتهـا .. و انتقلـت لأعيش مع أمي التي تزوجـت هي الأخرى من رجل مع أولاده ، و أنجبت منـه .. لا فرق بيني و بينهم من جهة أمي .. و لكن زوجها حاول أن يعيدني إلى أبي لأنني قد أنهيت سـن الحضانة . السن القانونية التي حددها القانون المصري .

ظلال من الصــور الباهتة أحاول أن أجمعها عن سـبب انفصــال أبي و أمي ، و لكن الصور تأبى أن تتجمع .. و كلاهما لا يذكر السبب في هذا الانفصـال .. كل منهما يرمي الحمل عن نفسـه .. المهم ألا يعيشـا معا لأنهما مختلفان في كل شيء .

انتقل من بيت إلى بيت لا يهم ، لا أحد يشـــعر بي .. و أخيرا عشـــت مع جدتي لأمي ، امرأة عجوز ، و معها خادمة شـــبه عجوز ، لأنني كما يقولون سـبب كل المشـاكل في كل مكان أذهب إليه .. عشـت مدللة مرفهة ، أطلب فإذا بي أجد ما طلبته و أكثر أمامي .. لقد كنت بالنســبة لجدتي الابنة التي باعدتها ظروف الزواج عنها ، و أنا قد ملئت حياة جدتي.

ماتت جدتي .. و كانت المفاجأة إنها كتبت كل شـــيء عندها لي ، ليس لأمي ، و حيث إنني قد تخطيت الســـن القانونية ،فإنني فضـــلت أن أعيش في بيت جدتي و بمفردي ، مع خادمتها ، رغم المحاولات الحثيثة التي بذلها أبي بمشـــورة من زوجته طمعا في تلك الثروة التي معي ، و التي تبذلها أمي بمسـاعدة زوجها لكي أعود للسـكن معهما أيضـا لنفس الســـبب. و لكني رفضـــت كل العروض التي بذلها، ظهرت من كل طرف بوادر الاهتمام بي ، الهدف واضـــح جدا هو الاســتيلاء على هذه الثروة الضخمة التي تركتها لي جدتي .

كانت كلماتها ســـريعة منفعلة ، لدرجة إننا لم نشـــعر بأن أمي قد دخلت علينا ، جلســت في أحد زوايا الحجرة .. و لكني لمحتها ، ولمحت الدموع في عينيها ، و في عين أختي ..

و فجأة قالت أمي :

مســكينة يا ابنتي ، كل هذا بداخلك . من الان ان ابنتي الثانية ، تأتين كل يوم .

ســكتت الفتاة ، و لم تنطق ، ولم أعلق بأي شـــيء رغم أن هناك تعليقا كان يجب أن أبوح به ، و لكن وجود أمي منعني من الكلام .

أخذتها أمي في حضنها كأنها طفلة صغيرة .. وقالت لها :

اعتبري هذا البيت بيتك من ، واعتبريني مثل والدتك من الآن ..

و هكذا دخلت حياتنا من أوسع أبوابها ، ليست كضيفة تأتي بعض الوقت ، و لكنها الآن ابنة لأمي لها نفس الحقوق التي لنا ، عليها نفس الواجبات التي علينا .

في صـباح كل يوم كانت تأتي إلى باب البيت ، لنذهب سـويا إلى الجامعة .

و انقطعت صلتها انقطاعا بالشبان ، وصـارت لا تتحدث إلا مع الفتيات ،و تنتظرني لمصاحبتها إلى البيت .

و هكذا إلى ان انتهت دراستنا الجامعية ، و لكن لم تنقطع زيارتها لبيتنا .

في يوم من الأيام قالت لها أمي :

لقد جـاء عريس لـك يطلـب يـدك ، ولم أعرف مـادا اقول لـه ، و اعطيته موعدا ليأتي لزيارتنا ، و أنا في انتظار ردك.

سكتت ، ثم بكت ، وقامت من مقعدها لتحتـضن أمي ، وقـالت لها :

أنا موافقة طالما العريس من ناحيتك .

إذن فقد حلت مشـــكلتها ، و شـــعرت أن لها عائلة تنتمي إليها ، عائلة تحبها دون غرض .

و إذا سـمح العريس لي ، فقد أريد زيارتك كل أسـبوع ، و أتمنى أن تزورني أنت أيضا

امرأة بين الشرفاء

قابلتها أول مرة أثناء الصـــيف .. بينما الظلام يرخي ســـدوله ، وكنت يومها ضـــائق النفس و الصـــدر مهموما ، لا أعرف ماذا أفعل في نهاية هذا اليوم الكئيب ؟ أو ماذا أريد أن أفعل ؟ فأنصـــرف تفكيري أن أسير في الطرقات بلا هدف ، لعلي أروح عن نفسـي في تلك الليلة التي ارتفعت حرارتها ، و قل هواؤها ، وزادت رطوبتها .

كانت ساهمة مطرقة ، تنظر إلى الأرض كأن شيئا قد فقد منها ، شـــيئا ثمينا ، من طول نظرها إلى الأرض ، و اقتربت منها ، و نظرت إليها ، فيما يقرب من خمس دقائق ، و على وجهي ابتســـامة شـــاحبة ، و ما كادت ترفع عيناها حتى أحمرت وجنتيها ، و لكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد عاد وجهها إلى طبيعته واختفى الاحمرار ، و تكلفت الابتســامة ، كانت ابتسامتها ماكرة صائدة ، و لكنها – بالنسبة لي – ابتسامة جذابة ، جذبتني إليها .. فقد كنت في هذه اللحظة - في قرارة نفســي - أتمنى أن أعرف سر هذا الوجه الحزين .

كنا على محطة المترو في المعادي ، وقد تكلمنا بضـــع كلمات بسيطة ، وجاء المترو ، فصمتت ، ووعدتني بالحديث فور نزولنا ..

كان المترو شديد الزحام ، وحاولت قدر الإمكان أن أبتعد عنها ، أن ابتعد عن جسدها ، ولكن هيهات ، فقد اقتربت هي مني ، و التصقت بي التصـــاقا ، جعل جســـدي يزداد حرارة فوق حرارة المرة ، و حرارة الجو ، و كانت عيونها تنظر إلي بشـــدة ماكرة ، تســـتطلع أخبار الحريق الذي نشب في جسدي .

حين نزلنا من المترو ، و جدتها و قد شـــبكت يدها في يدي ، و كأننا أصـــــدقاء منذ أمد طويل ، كانت تلقائيتها تجذبني إليها بشـــــدة ، و ســـرنا في كثير من الطرقات بلا هدف ، من باب اللوق إلى التحرير ، و اجتزنا الكوبري ، كانت تســـير أحيانا بخطوات بطيئة كأنها تريد ألا يمضـــي الوقت ، و أحيانا أخرى تســـرع نبضـــات الخطو كأنها تريد أن تلحق ، و كأنها تريد أن تجري ، و كنا نقف بين الحين و الحين أمام أحد المحلات لتناول سندوتش أو عصير أو آيس كريم .

لم نشعر يومها بالوقت ، كيف مر ، لقد تجاوزت الساعة الحادية عشـــر مســـاء ، وكنت أتمنى ألا أودعها ، أو أن أفارقها ، و يبدو أن هذا الشعور قد تملكها أيضا .

و سألتها فجأة :

طالبة ؟

لم تجب عن ســـؤالي ، و عاد وجهها إلى الاحمرار بشـــدة مرة أخرى ، و تلعثمت الكلمات في فمها .. ثم أجابت :

لا : عاملة .

ساكن مع أهلك ؟

فقلت لها و أنا أميل إلى الاستغراب :

لا .. أنا ساكن لوحدي .

قالت ، وهي تهز يدها المتشابكة في يدي :

لماذا ؟

فقلت لها :

إن أهلي في البلد ، و أنا أعمل هنا ، لهذا فقد أخذت شقة لوحدي أعيش فيها .

ابتسمت ، وكأنها قد ظفرت بما تريد ، و رغم توجسي فقد ظللت أتابع أسئلتها الكثيرة .. فقالت بعد صمت قليل :

ساكن فين ؟

قالت لها :

في نفس المحطة التي ركبنا منها .

قالت على الفور و بدون تردد :

تعال نرجع .

ورجعنا إلى المعادي ، ووصلنا إلي البيت ، لم ألمح البواب أو زوجته ، وصعدنا إلى شقتي ، لا أعرف كيف كنت مسوقا من قبلها ، معصوب العينين ، مشلول التفكير . و دارت الأسئلة في ذهني أسئلة لا نهاية لها :

لماذا أتيت بها إلى هنا ، و أنا الذي لم تأت امرأة إلى شـــقتي ، أو حتى صـــديق ، و أنا بالكاد أعرفها منذ ســـاعات قليلة ، أعرفها ، لقد جذبني إليها الحزن القابع في عينيها ، جذبني إليها بعد ذلك تلك التلقائية في الحديث .

و تذكرت أنها في شقتي ، و دارت الأسئلة تزاحم تفكيري :

ماذا سـيقول الجيران و هم يرون فتاة غريبة في شـقتي ؟ و ماذا أقول لهم عنها ؟ هل هي من بنات الليل ، اسـتطاعت أخيرا أن تحصـل على زبون ؟ و لكن السؤال الأول ظل يتردد على خاطري ، لماذا كانت تبكي عندما التقيت بها في محطة المترو ؟

جلسنا في حجرة الصـالون ، جلست أمامي و قد شـعرت بالراحة أخيرا ، وشعرت أنها تنفض عن كاهلها غبار أيام ثقيلة من المعاناة .

سألتها :

تحبي تتعشي ؟

قالت دون تردد :

نعم ، أين مطبخك ؟

وذهبنا إلى المطبخ لنعد طعام العشاء بما كان موجود في البيت .. و تناولنا العشاء . ورفعت الصحاف ، و غسلتهم .

جلست إلى جانبي ، وقد ألصقت جسدها بجسدي ، فشعرت بنفس الحرارة التي شـــعرت بهـا من قبـل حينمـا كنـا في المترو المزدحم ، و أخذت تتحدث بلا توقف ، وكأنها قد شعرت بالأمان أخيرا ، و كأنها قد

شـــعرت بدفء البيت التي يبدو أنها محرومة منه ، و كأنها شـــعرت بالحنان الذي لم تعرفه من قبل . كانت و كأنها تحلم و لا تريد الاســتيقاظ من هذا الحلم الجميل .

قالت بصوت هامس ، و كأنها تحدث نفسها :

أتمنى أن يدوم هذا الحلم .

سألتها :

أين تسكنين ؟

و كأني قد أخرجتها من جنة أحلامها التي كانت فيها ، من حلمها الوردي ، قالت ، وقد كسا الحزن و الهم وجهها من جديد :

أســـكن في الجهة الأخرى من هنا ، مع أمي وزوجها المخمور دائما ، القاسي القلب ، الذي يوبخني من أجل المال ، سواء أعطيته أم لم أعطيه .

سكتت قليلا وحزن عميق يكسوها وجهها الطفولي ، ثم قالت بعد ذلك :

هل من الممكن أن أنام هنا الليلة ؟

نظرت إليها نظرة الدهشـــة ، و هي تســـحبني من يدي ســـحبا ، و تدخل بي حجرة النوم ، و لكنها أخطأت الغرفة فدخلت غرفة المكتب ، فضحكنا سويا .. و عادت أدراجها ، لتدخل الحجرة الصحيحة .

كنت واقفا ذاهلا ، و أسأل نفسي ، ما الذي يحدث ، هي إذن من بنات الليلة ، و لكني لم أمارس في حياتي هذه اللعبة ، و لا أريد أن

أمارســـها ، فأنا لدي مبدأ هو احترام النفس احتراما كاملا مع الارتباط بكل ما شرعه الدين من محرمات ، ولن أخون نفسي مهما يكن .

لاحظت ترددي و إحجامي ، فبدأت في خلع ملابســـها ، ولكني اســـتوقفتها ، وقد ظهرت أمامي أجزاء جســـمها الفاتن البض بملابســـها الداخلية ، وقلت لها :

أنت ستنامين هنا ، أما أنا فسوف أنام في الحجرة الأخرى .

استغربت ، و علت الدهشة وجهها ، وقالت لي :

إذن ماذا تريد مني ؟ لماذا أحضرتني إلى شقتك ؟

قلت لها بحزم وجد :

لقد وجدتك حزينة و الدموع تملأ عينيك ، و أنت تجلســـين على محطة المترو ترتعشين ، و قد مضى أكثر من مترو فلم تركبي ، فأردت أن أعرف قصتك .. لا تقلقي سوف أعطيك ما تريدين من مال .

وأخذت أغراضي بعد أن تركت لها بعض المال بجوار السرير ، و ذهبت إلى الغرفة الأخرى .

في الصباح استيقظت ، و أحسست إنني أحلم ، و لكني ذهبت إلى غرفة النوم ، فلم أجدها ، ووجدت المال حيث وضـــعته ، أخذت أبحث عنها في الشـــقة ، فلم أجد لها اثر ، و جال في خاطري أنها ربما ذهبت بعد أن التقطت بعض الأشـــياء الثمينة ، و لكني لم ألحظ أي شـــيء قد اختفى من الشقة ، فشعرت بالدهشة و الاستغراب .

شـغلتني تلك القصـة بضـعة أيام ، ذهبت إلى محطة المترو في نفس الموعد ، ولكني لم أعثر لها أثر .. شعرت أن ذلك كان حلما ، ومع الأيام بدأ يتوارى مع من توارى من الأحداث في خانة الذكريات .

ثم جاء فصـل الشـتاء ، وكان شـديد البرودة ، كثير الأمطار ، و قليلا ما كنت أخرج من بيتي ، وفي إحدى المرات القليلة التي خرجت فيها ،وسـاقتني قدامي إلى المحطة دون وعي مني ، لمحت شـبحا منزويا في ركن المحطـة ، في نفس المكـان .. اقتربـت منهـا بخطى بطيئـة ، لمحتها تغادر مكانها ،و تخرج من المحطة إلى الشـارع ، وتسير في تلك الشـوارع الخاوية ،لا أعرف لماذا تبعتها ، وفجأة لمحت عربة مسـرعة تنهب الطريق نهبا ، وأصـبح بين الفتاة و السـيارة مسـافة صـغيرة ، هي شـاردة الذهن إذن ، أسرعت وفي اللحظة الأخيرة و أبعدتها عن العربة ، شكرتني والدموع تنهمر من عينيها ، قالت لي :

ذأنت .. لماذا لم تتركني أموت .

لم تكن قد تغيرت كثيرا ، سـألتها عن سـبب اختفائها ، عن حياتها ، فلم تجب ، كانت ترتعش من شـدة البرد ،فلم يكن الفسـتان الرقيق الذي ترتديه كافيا لوقايتها من البرد القارص ، خلعت معطفي ووضـعته على عاتقيها .. نظرت إلي ساعتئذ نظرة غريبة ، و كأنها تقول في نفسها :

لماذا يعاملني هذه المعاملة .. ما أنا إلا فتاة ليل تبيع جسـدها لمن يشتري ، و هو قد رفض هذا الجسد من قبل .

صحبتها إلى بيتي مرة أخرى ، أعددت لها العشاء الفاخر ، وكأنه غداء ، أكلت و كأنها لم تأكل منذ أيام ، و شـربت الشـاي .. بدأ الدفء

يســـري في جســـدها .. كانت عيناها الجميلتين قد اغرورقت بالدموع .. و أحسست أن التعب قد أسلمها إلى النعاس .. حملتها إلى غرفة النوم .. شـــعرت بجســـدها الســـاخن الذي شـــعرت به من قبل مرتين ، شـــعرت بنظراتها الظمأ إلي .. نزعت عنها ثوبها ، و أعطيتها جلبابا من جلاليبي ، ارتدته بسرعة ، و كأنها تحاول أن تخفي جسدها عني .

ذهبت في ثبات عميق ، وهذا المرة لم أغادر الغرفة ، بل نمت بجوارها على السرير ، ليس خوفا من هروبها ، و لكنني كنت في حاجة إلى الدفء ، فقد كانت الشـــقة باردة . و أحســـســـت خلال الليل بيدها و جسدها و هي تتقلب في الفراش .

استيقظت في الصباح ، فوجدتني بجوارها على السرير ، حاولت أن تتسلل من الغرفة ، ومعها ملابسها ، فابتسمت لها ، وقلت :

إلى أين هذه المرة .

سأغادر حتى لا أسبب لك أي إزعاج ..

قلت لها :

لن تغادري إلى أي مكان ، ســوف نفطر أولا ، أعدي لنا الفطار ، و بعد ذلك نتحدث ، فأنا أشعر أن هناك أشياء يجب أن تقوليها .

أعدت الإفطار ، و تناولناه ، وشربنا الشاي.. و نظرت إليها دون أن أنبث بكلمة .. نظرت هي الأخرى إليّ و كأنها تبحث عن كلمات تقولها .

بدأت الكلمات تخرج من فمها ثقيلة يغلفها الحزن .. أنا فتاة ليل ، هكذا اعترفت لي .. و ســكتت ، وران الصــمت ، و لكني لم أتكلم خوفا

من أن أجرح كرامتها كإنسانة .. أردفت قائلة و الكلمات ترتعش في فمها :

أبيع جســـدي لمن يشـــتري ، جنيهات قليلة أو كثيرة لا يهم ، معاملة حسـنة أو سـيئة لا يهم ، المهم أن أحصـل على النقود المطلوبة و انصـرف ، و بعد عودتي أعطي ما اكتسـبته من نقود إلى زوج أمي السكير ..

و ســـكتت مرة أخرى ، و لكن هذه المرة كـانت تنظر إلي ، و كأنها تريد أن أتكلم ، و لكني كنت قد سرحت فهذه الكلمات قد سمعتها من قبل في فيلم عربي ، أو في مسلسل ، و لهذا تعمدت الصمت .

واستطردت هي في حديثها بعد أن فشلت في إخراجي من صمتي :

منذ أن التقيت بك في المرة السـابقة .. أحسـسـت أن شـيء ما يحدث في تفكيري .. ليس حب بالطبع .. لقد تغير شـــيئا في حياتي .. أحسست بعد أن رفضت جسدي الذي كشفته لك و الذي لم يرفضه أحدا من قبل ، إنني رخيصـة ، و أن هذا الجسد ، هذا اللحم عفن من كثرة ما دنسته .. و أحسست أن النقود التي تركتها لي نار تلسع يدي ، بل كرامتي ، وهو شعور لم أشعر به من قبل .. لم أنم هذه الليلة كاد التفكير – بما فعلت بي - يقتلني ، وأحســـسـت أن وضـــعي مهين ، و أحسست أنك غير كل الرجال الذين صـادفتهم ، حركت شعوري بنفسي بإنســـانيتي التي فقدتها تحت ظروف الحاجة .. خرجت من عندك وقت الفجر ، كنت أريد أن أتطهر ، أن أغسل ذنوبي .

وذهبت إلى البيت ، فوجدت زوج أمي في انتظاري ، يمد يد التسول طالبا النقود ، أحسست باشمئزاز منه ، وحينما أخبرته أن لا نقود لدي أخذ في ضربي بيده ، و لزمت البيت فلم أخرج منه ، كان يخرج ثم يعود ، سائلا عن النقود ، فأخبره بأنني لم أخرج ، و إنني لن أمارس ذلك العمل بعد الآن ، وكان يضربني بشدة ، ثم يضرب أمي . و استمر الحال على ذلك .. هجر البيت بعض الأيام ، ثم عاد ، هادئا بعض الشيء . و كنت في هذا الوقت أبحث عن عمل ، فلم أجد لنفسي عملا إلا خادمة في البيوت ، أغسل ، أنظف ، و أقول لك الصدق .. رغم أنه عمل متواضع قد يشعر الإنسان بحقارته ، إلا إنني أحسست بنفسي و كرامتي ، كانت النقود التي اكتسبها يدوب تغطي نفقات البيت الذي كان يهجره زوج أمي دون أن يترك لنا ما يقيم أودنا .. أصاب المرض أمي ، ذهبت بها إلى الدكتور فأعطاها علاج ، وقال لي إن أمك في حاجة إلى عملية جراحية و بسرعة .. اشتريت الدواء ، ولكنني لم أستطع أن أدبر تكاليف العملية .. كان الألم يعصر أمي عصرا ، والدواء ما هو إلا مسكن فقط ، كنت أذهب إلى عملي ، وأعود إلى البيت لأجد أمي المسكينة و هي تصرخ ، أبكي و لكن ماذا يفيد البكاء ، كان زوج أمي يحضر ، و يشاهد كل ذلك و يبتسم ، نتشاجر ، فيذهب و لا يعود إلا بعد أيام ..لم يمهل المرض أمي كثيرا ، فقد ماتت منذ أيام .

عاد و قد علم بموتها ، و لم يخرج من البيت ، أثناء الليل أحسست به و هو يحاول أن يعتدي علي ، يعتدي على جسدي ، ذئب بشري .. صرخت .. ضربته .. ذهب ، و لكنه عاد في الصباح ليطردني من البيت ، قلت له إن هذا بيت أمي ، ضحك ، وقال أنه غير عقد الشقة

مع صـاحب البيت ، و أنه سـيحضـر زوجته الجديدة إلى البيت ، و لهذا فهو لا يريـد أن يرى وجهي في هـذا البيـت مرة أخرى .. ذهبـت إلى المحطة ، وجلسـت في هذا المكان .. حينما لمحتك .. أسـرعت بالذهاب بعيدا عنك ، حتى لا تراني ، و لا يتكرر الموقف السابق منك .

أحسـست أنها صـادقة هذه المرة ، فقد كانت الدموع التي خرجت من عينيها تدل على هذا الصـدق ، نبراتها صـوتها التي يقاطعها النشـيج تدل على صدقها ، كانت القشعريرة التي أخذت بكيانها تدل على الصدق .. ابتسمت لها ، وقلت مداعبا لها :

قصة جميلة جدا .. من أي فيلم ؟ ..

نظرت إلي و أخذت في البكاء بنشيج .. فأسرعت أقول لها :

أنا أداعبك يا هبلة .. و لهذا سـوف أدبر لك عمل شـريف . هل تعرفين القراءة و الكتابة ؟

قالت لي : لقد كنت في الإعدادية حينما مات أبي .. و لكن بعد زواج أمي من هذا الرجل السـكير ، أمرني أن أترك الدراسـة . وسـوف أكمل تعليمي إذا أتيحت لي الفرصـة . فأنا أفهم بسرعة ، و أستطيع أن أخذ الثانوية ، و أن أذهب في التعليم إلى أبعد الدرجات .

قلت لها ، و أنا أشجعها بابتسامة رقيقة :

العمل في مكتبي .. سكرتيرة خاصة ..

سألتها ذات يوم .. أين بيتها التي كانت تسكن فيه ، برغم نظرتها الغريبة ، إلا أنها أعطتني العنوان ، و اسم صـاحب البيت ، و اسم زوج أمها .

ذهبت في اليوم التالي إلى أحد أصـــدقائي الضـــباط في القســـم ، و أخذت أتســـامر معه ، وقد حكيت له القصـــة .. أســـرع الضـــابط أولا بالسـخرية مني لسـذاجتي ، و لكنه عدل عن تلك السـخرية ، و اسـتدعى اثنين من رجاله ، طلب من الأول أن يذهب و يحضـــر صـــاحب البيت ، و طلب من الثاني أن يحضر زوج أم الفتاة ..

حضر صاحب البيت , أقسم إيمانا مغلظا أنه لم يغير عقد الإيجار ، و لكن الضابط جعله ينتظر و في التخشبية .. ثم حضر زوج أم الفتاة ، وطلب منه أن يحضـــر العقد .. و تلعثم الرجل .. و أحضـــر الضـــابط صـاحب البيت ، وزاد اضـطراب زوج الأم .. صـرف الضـابط صـاحب البيت ، وقال له أنه قد يحضره مرة أخرى إدا لزم الأمر ..

نظر الضابط إلى زوج الأم .. و قال له مهددا :

هناك اتهام آخر قدمته الفتاة . إنك ضـــربت زوجتك أمها ضـــربا أفضـى إلى الموت .. و بكى الرجل ، فهو يعرف أن الضـابط يستطيع أن يلفق له ما شاء من التهم ، و أن يحضر الشهود الكثر المؤيدين لقوله .. و لكن الضابط لم يمهله في تفكيره ، أو مواصلة بكاؤه ، فقال له :

هناك اتهام ثالث إنك قواد تسرح الفتيات القصر .

وبهت الرجل .. قال له الضـــابط ، ســـوف أكون رحيما بك .. الأمين ســـيذهب معك إلى البيت ، وتخلي الشـــقة فورا ، و تعود لنكمل الحديث .

قلت للضابط :

لقد كنت قاسيا على الرجل ، أرجو أن تكون المسألة ودية .. قال لي

لك ذلك مني . و لكني سوف أعلمه أولا الأدب ، حتى لا يكرر فعلته مع غيرها من البنات .

استلمت الفتاة الشقة بعد أن تعهد لها زوج أمها بألا يقترب منها ، و أن يخرج من حياتها نهائيا ، و استدعى صاحب البيت ، و أنذره ألا يتعرض للفتاة حتى ولو لم تدفع الإيجار . .

كان صديقي يحكي لي هذه القصة مبررا اختفائه عن جلساتنا التي نعقدها كل يوم خميس ..

قلت له مازحا :

أ لم تلمسها ، و أنت زير نساء . . نراك و أنت تأكل أجساد النساء المارين في الطريق ، و لعلك أيضا لك علاقات بزبونات المكتب .

نظر إلي وضحك ، وقال لي :

أنا لم أخن نفسي يوما من الأيام .. حرام عليك يا شيخ .

لعل المثل القائل : " الآباء يأكلون الحصرم و الأبناء يضرسونه " ينطبق أكثر ما ينطبق على الفنانة المصرية ابتسام التي احترفت الرقص ، ليس في مصر وحدها و لكن في لبنان و امريكا .

في القاهرة اليوم طفلة تبلغ الخامسة من العمر فقط اسمها " غفران " و هذه الطفلة هي ابنة ابتسام البكر من زوجها المطرب اللبناني الشهير " سعد " الذي أقام في مصر عدة سنوات ، انتج و مثل خلالها أفلام جميلة ، و لكنها غير مشهورة لأنه أعتمد على ممثلين و ممثلات غير معروفين ، ثم ترك الشرق كله ، و سافر إلى البرازيل كعادة أهل لبنان في الهجرة ليقيم هناك مع زوجته اللبنانية الأصل التي هي صاحبة الملايين ، صاحبة الأعمال ، مالكة كل شيء ، حتى زوجها

كانت زوجته اللبنانية و تدعى غنوة ، قد ألتقت به في إحدى السهرات الخاصة ، و التي غنى فيها سعد ، فأعجبت به ، و أعجب بها ، عرضت عليه الزواج ، بل و المساهمة في تأسيس شركة للإنتاج الفني ، من خلالها قدم سعد العديد من ألبومات الأغاني ، و بعض الأفلام .

و الطفلة التي تعيش الآن في كنف جدتها في القاهرة ، و التي لم تر وجه والدها و لا تنعم بعطف أو حنان امها إلا في فترات متباعدة ، هذه الطفلة تعيش الآن من غير جنسية لمصر أو لينان أو أمريكا حيث تعمل أمها ، او حتى ورقة تثبت شخصيتها و تاريخ مولدها .

فإن زواج سعد بابتسام ، تم في القاهرة بعقد عرفي و ليس أمام الدوائر الشرعية المختصة بأمور الزواج ، و جمع الرؤوس بالحلال .

و عاش الاثنان في سعادة غامرة ، و هي في زحمة العمل كانت تنتهز الفرصة لتأخذ قطرات من السعادة الدنيوية .

و كانت ابتسام في شهرها السابع ، عندما قام خلاف شديد بينها و بين زوجها ، جعلها تمزق عقد الزواج و نرميه من شباك الفندق ، حتى إذا وضعت طفلتها ، سارعت بتسجيل اسمها و موعد ولادتها في دوائر الصحة ببيروت ، ذلك لأن دائرة اثبات الهوية لا تمنح تذكرة نفوس كما يسمونها في لبنان إلا للمواليد الذين يكون بين والديها عقد زواج في المحاكم الشرعية .

و بعد الولادة افترق الزوجان ، سعد و ابتسام ، فعادت هي إلى القاهرة حيث تركت ابنتها عند جدتها والدة ابتسام ، ثم سافرت إلى أمريكا لتصبح هناك من كواكب الرقص الشرقي ، و في نفس الوقت كان سعد قد عثر على ابنة الحلال التي قبلت أن يشاركها حياتها و ثروتها ، فتزوجها و سافر معها إلى البرازيل ليقيم هناك دون أن يفكر في العودة إلى لبنان ، و دون أن يعرف أن زوجته السابقة قد انجبت بنتا .

في أمريكا قضت نادين عدة سنوات ترقص في الملاهي الليلية ـ و اشتهرت هناك شهرة مدوية ، و تزوجت من شاب أمريكي جميل وسيم من أصحاب الملايين يتردد ورائها في كل ملهي تعمل به ، و أصبح عندها سيارة كاديلاك أحدث موديل ، و رصيد محترم في البنك يغنيها طوال حياتها ، مورد مادي لا ينقطع أبدا حتى ولو توقفت عن العمل .

و رغم السعادة التي كانت تحيط بها من كل جانب ، فإنها في أكثر الليالي كانت تصاب بالأرق ، فيصور لها خيالها أشياء و أشياء ، عن مستقبل ابنتها التي تركتها مع جدتها في القاهرة ، مستقبل مظلم .

و في مطلع الصيف استطاعت ابتسام أن تأخذ لنفسها اجازة من العمل في أمريكا ، و طارت إلى لبنان لترقص في ملاهي المصايف ، و لتبحث في الوقت نفسه عن زوجها السابق سعد ، عن وسيلة تستطيع بها أن تخرج لابنتها " تذكرة هوية " حتى لا تكبر الفتاة بعد سنوات و تصدم بالحقيقة المؤلمة .

و قابلت نادين رئيس وزراء لبنان السابق ، و روت له قصتها ، فوعدها خيرا ، و أوعز إلى الدوائر المختصة بتسهيل قضيتها و الاستعجال باستخراج : تذكرة هوية " لابنتها فيما لو ابرزت الوثيقة الوحيدة التي تثبت موعد ولادتها و انتسابها الأبوي إلى المطرب سعد ، أي وثيقة دوائر الصحة .

و رغم أن حكومة الوزير قد استقالت فإن الاهتمام بقضية ابتسام ظل يشغل الدوائر المسئولة التي وجدت نفسها أمام أم تخلت عن كل سعادتها و شهرتها في أمريكا ، و رضيت أن تعمل في مسارح لبنان بأجر زهيد جدا ، لا لشيء بل لتضمن المستقبل الكريم لابنتها الوحيدة .

و عصرت الفنانة المسكينة ذاكرتها لتحاول أن تعرف أين توجد الورقة السحرية التي احتفظت بها ، هذه الورقة ستحل المشكلة ، أي شهادة دوائر الصحة ، و لكن دون جدوى ، فهي لا تعرف إذا كانت هذه

الشهادة في لبنان أم في مصر ، معها أو مع زوجها الغارق في الحب و الملايين حتى أذنيه .

و تملكها اليأس ، و كادت تعود إلى أمريكا و الدموع تملأ عينيها ، و كلمة " ماما " تنساب إلى أذنيها من القاهرة إلى بيروت إلى أمريكا و كأنها لسعات سوط تلهب قلبها .

و فجأة انقلب الموقف رأسا على عقب ، فقد كانت نادين مستغرقة في نوم عميق عند الساعة السابعة صباحا بعد سهرة صاخبة ، عندما سمعت على باب غرفتها في الفندق دقات خفيفة متتالية ظنتها في بادئ الأمر من أحد المعجبين ، فتهيأت للقائه و اهدائه أكبر كمية من الشتائم و اللعنات ، فليس هذا موعد استيقاظها من النوم، و خصوصا إنها تعمل إلى الفجر .

و لكن ما إن فتحت الباب حتى فوجئت برؤية سيدة عجوز تتكئ على عصاها ، و تبرز لها الورقة السحرية ، الورقة التي تبحث عنها منذ ثلاثة أشهر ، كانت السيدة العجوز هي والدة سعد ، الذي هجرها هي أيضا ، و تركها فريسة للمرض ، و ضنك العيش .

و قالت لها إنها خبأت الورقة في صدرها منذ خمس سنوات ، و لم تعرف إلا من الصحف أن ابتسام مقيمة في لبنان ، و أنها تبحث عنها منذ سنوات ، قيل لها سافرت إلى أمريكا و استقرت بها .

و انتهت القصة عند هذا الحد ، و استخرجت ابتسام " تذكرة هوية " لبنانية لابنتها القيمة في القاهرة مع جدتها .

ووعدت جدتها المقيمة في لبنان أن ترعاها كأمها ، و تصرف عليها ، و أن تحضر ابنتها في الاجازة الصيفية لتعيش معها ، و تتعرف عليها .

و قالت و هي تركب الطائرة عائدة إلى أمريكا و الدموع تملأ عينيها :

إن القلب لا يحس بآلامه إلا قلب الأم .

قالتها بالإنجليزية لأنها لا مؤاخذة مسافرة إلى نيويورك .

و هكذا عاش الجميع في سعادة .

مقلب

قالت لصاحبتها الحميمة .. التي جاءت لزيارتها ، بعد أ ن علمت بمرضـــها .. و هما جلســـتان في حجرتها ، و الدموع الحارة لا تكاد تفارق عينيها:

لقد اغتصبني بكل وحشية ، ومن هذا المتوحش رفيق أبي الذي يعتبر مثل أبي ، لقد أنتزع مني أغلى ما أملك في حياتي ، و لن تصدقي من الذي ساعده ، و سهل له مهمته القذرة أنها أمي التي أكن لها كل الحب والتقدير ، وفي غفلة من والدي العزيز .لقد تأمرت علي ، لقد كان يوما صعبا لم يمر على يوم مثله في حياتي ، لن أنساه ما حييت .

حاولت صديقتها ، دون جدوى ، أن تهدأ من أعصابها الثائرة ، ومن دموعها الغزيرة .. رغم أنها لم تكن تعي شيئا مما قالت .. و حاولت أن تفهم منها الحكاية .

قالت و هي ذاهلة :

طلبت أمي أمس ألا أذهب إلى المدرسة لأنها تريد أن أساعدها في بعض أعمال البيت الكثيرة المرهقة ، و خصوصا أنها تشعر فجأة بالتعب و الإرهاق ، و تحس بالصداع . حاولت أن أتعلل لها بأن اليوم فيه دروس مهمة سوف تأتي في الامتحان . و لكنها رغم موافقتها على ذهابي ، سوف أنام الآن ، و عندما استيقظ سأعمل ما أقدر عليه إلى أن تأتي من المدرسة و تكملي .

أحسست أنها فعلا متعبة ، و إنني يجب أن أساعدها ، فهي تقوم بأعمال البيت المختلفة كل يوم ، و لم تطلب المساعدة رغم أن أبي أخبرها أكثر من مرة أنه يستطيع أن يأتي لها بخادمة تقوم بكل أعمال البيت ، إلا إنها كانت ترفض ذلك النوع من المساعدة ، خوفا من السرقة

، أو من نقل أخبارنا ، خوفا من أن تحاول إغراء أبي ، أشـــياء كثيرة كانت تداعب تفكير أمي بالنسبة للشغالات التي تقوم بأعمال البيت .

أصـــدقك القول شـــيئا ما كان يدور في أعماق تفكيرها كنت لا أعلمه ؟ لماذا ، وفي هذا اليوم بالذات تطلب مني أن أمكث في البيت ؟ أسئلة كثيرة دارت في ذهني ، لم أجد لها إجابة ، و فجأة سمعتها تتحدث في الهاتف مع رجل وكانت تقول له:

لحسن الحظ لم تذهب للمدرسة هذا اليوم سأحضرها لك .

هذا ما ســـمعته من الحوار الذي دار بين أمي و من تحدثه على الهاتف ، و لم أهتم كثيرا . فقد يكون المتحدث أبي . فقد كانت أمي تتحدث مع أبي خلال النهار أكثر من مرة .

وبعد حوالي الســاعة رن جرس الهاتف فأحســسـت بانقباض لم أعهده في جسدي، يا الله ما الذي يخبئه لي القدر هذا اليوم ؟

تظاهرت بأني مشـغولة و كنت سـاعتها أتمنى أن تعود السـاعة للوراء كي ارحل بنفسي للمدرسة و أنجو من الأمر الذي أنا مقبلة عليه .

أحيانا يأتي شعور يشعر فيه الإنسان أن شيئا رهيبا سوف يحدث ، قد يغير مجرى حياته ، هذا الشعور قد تملكني و لم يفارقني ، لا أعرف لماذا ، و كاد التفكير أن يصيبني بالهم الشديد ، بالشلل ، بفقد الأعصاب .

فجأة أحسست بان أقدام أمي تقترب من المطبخ وتنادي باسمي ، وقالت لي :

هيا استعدي ، فسوف نذهب إلى السوق ، لشراء بعض الأغراض المنزلية . اذهبي لارتداء ملابسك .

قلت لها:

هل سيذهب بنا أبي ؟

قالت:

لا ولكنه على علم بالمكان الذي سوف نذهب إليه .

أخيرا رضخت لطلب أمي لأنني لم اشك إنني سأفقد في هذا اليوم شـــيء غالي علي ، خرجنا ، لقد كان كل شـــيء جاهز وليس هناك ما يعيقنا . و أظن إنني مهما أعطيت من مبررات فلن تعدل أمي عن رأيها .

الشـــوارع كانت ولأول مرة في حياتي أجدها غير مزدحمة ، تشـعرين أن أهل المدينة قد تركوها ، أو تركوني لأعاني همومي وحدي ، و لا أعرف كيف سـأتصـرف على ما أنا مقبلة عليه من خطر محدق ، ظل هذا الشعور الداخلي يؤرقني على امتداد الطريق .

وصـــلنا إلى مكان ذلك الرجل ، و ركبنا المصـــعد إلى الطابق الثاني ، فتح أحد الأشخاص الباب ، و استقبلنا بحفاوة شديدة ، و أدخلنا غرفة مجاورة ، و بعد قليل أقبل علينا صـديق أبي ، وكان يرتدي افخر الملابس ، بل و يضع عطرا ذو رائحة جذابة .

اســتقبلنا بحفاوة شــديدة ، وكان وجهه المبتســم قد أزال بعض الهموم التي كانت تشغلني ، ثم قدم لنا العصير .. طلب مني أن اقترب منه قليلا ، وبدأ يســألني بعض الأســئلة المتفرقة ؛ عن المدرســة ، عن

الكلية التي أريد أن أدخلها ، عن أملي في المســـتقبل ، و كان بين الحين و الحين يطلب مني أن أشرب العصير .

شـــعرت بالخوف مرة أخرى ، وخفت وتمســـكت بيد أمي ، و كأنني طفلة صـــغيرة ، و بدأ رأســـي يشـــعر بالدوار، طلب مني أن أذهب إلى الحجرة المجاورة ، و سـار بجانبي ، طلبت من أمي الحضـور معنا ولكنها قالت لي

:أذهبي معه وسوف أنتظركما هنا .

و أردفت أمي :

دلع بنات .

قال لي :

لا تخافي فسوف لن تشعري أبدا بالألم !!

بدأ الشعور بالخوف يتملكني مرة أخرى من ذلك الرجل صديق أبي الذي أعده في منزلة أبي ، وهو يبتسم ابتسامة غامضة ,. أنه يرتدي قناع الشيطان ، و يخفي خلف تلك الابتسامة الشر كله لي .

وعندما ذهبت إلى الغرفة المجاورة معه ، طلب مني أن استلقي على سرير أبيض ، وبعد ذلك لم أشعر بشيء ، كان النوم يداعب عيني بشدة ، نوم لم أعهده في ذلك الوقت من النهار .

وعندما استيقظت وجدت قطعة من الشاش ملفوفة عليها بقع دم .
صرخت بأعلى صوتي ، و لكن أين صوتي لقد اختفى هو الآخر

سمعت هذا الرجل الذي أصبح من اليوم عدوي ، الذي لن أنسى جرمه ما حييت ، يقول:

الجرح بسيط وسوف يندمل بمرور الأيام، وسوف تنسى الأمر

رجعنا إلى البيت وأنا احمل هموم الدنيا على كاهلي .

وصلنا البيت وبسرعة البرق أسرعت إلى حجرتي وأخذت أبكي وأبكي بكاء مرا لأني بدأت أشعر بألم ما فعله بي ذلك الرجل السفاح . وأخذت اصرخ وأقول:

ماذا فعلت بي يا أماه .

أخذت قطعة القماش التي وضعتها أمي بجوار السرير ، وأنا أرى عمري كله وأحلامي قد انتهت في هذه القطعة .

ففتحت القطعة وإذا بأحد أسناني الأمامية قد خلع فعرفت بأني كنت عند طبيب الأسنان .

و ضحكت ضحكا عاليا .. لم تضحكه في حياتها ، و ذهلت صديقتها من هذا المقلب الذي لن تنساه هي الأخرى في حياتها .

الأميرة و الملياردير

هي أميرة من الأسرة الحاكمة في وطننا العربي ، و هو ملياردير مصري بفعل الزمان الغريب الذي يسود عصرنا .

هي طلقت من زوجها الملياردير من بلدها ، و أخذت عدة مليارات من الدولارات ، أضافتها إلى ملياراتها المتراكمة في شتى البنوك الأجنبية ، و قد يستغرب الإنسان إذا عرف أن سبب الطلاق هو أنها ملت الحياة مع هذا الرجل الذي لا يزورها إلا في المناسبات ، رغم أنها هي أيضا لا تمكث في بلدها و في قصرها الذي اشتراه الملياردير لها ليكون مقر الزوجية .

أصبحت حرة غير مقيدة بقيود الزواج ، رغم أنها خلال زواجها كانت حرة في الحركة ، تسافر وقتما تشاء إلى أي مكان تشاء ، تسكن أفخر القصور التي تملكها أسرتها ، فإذا ما ملت قصورها نزلت في أفخم الفنادق ، تاركة أتباعها في القصور إلا القليل منهم يأتون معها لحراستها من تطفل العيون .

و الحرية الجديدة التي نالتها ، جعلتها ترتاد ما شاء لها من حفلات الكبار سواء من الأسر المالكة في أوربا أو رجال الأعمال المشهورين في الوطن العربي و الغربي ، الحرية الجديدة جعلتها تنطلق دون وازع من ضمير ، أو خلق عربي أصيل ، حرية أشبه بالفوضى ، تفعل ما تشاء ، تلبس ما تشاء من أرقى البيوت ، و أرقى المودلات .

في أحد الحفلات في باريس التقت به ، تحدث كل واحد منهما إلى الآخر ، حديث من تلك الأحاديث التي يتبادلها رجال الأعمال في تلك المنتديات الحافلة ، و اتفقا على اللقاء مرة أخرى ، فهو عنده الكثير من الأعمال في العديد من البلدان ، و هي تريد أن تكون سيدة أعمال – كما قالت – من الطراز الأول ، و لما لا فما معها ما يكفي العديد من المشاريع في أي مكان في العالم ..

في اللقاء الثاني لهما في لندن.. كانت البداية مناقشـــة بعض الأعمال التي يمكن أن تكون مشـــتركة بينهما .. و تحول اللقاء .. بقدرة قادر .. إلى لقاء عاطفي عملي .. تقرر فيه أن يتم الزواج – سريا – بين الطرفين .

هي لم تكن جميلة بالقدر الكافي الذي يجذب إليها الرجال ، رغم أنواع المســاحيق المختلفة التي تحول بها إخفاء سـنها الحقيقي ، و أنواع المجوهرات الحقيقيـة التي تبهر العيون ، تلـك الملابس التي ترتـديهـا محاولة أن تظهر بعض مفاتن جســـدها البض الربراب ، إضـــافة إلى اللقب التي يسبق اسمها ..

هو رغم أنه تجاوز الخمسين من عمره ، إلا أنه أيضـا قد وضـع بعض الأصـباغ في شـعره ، فاختفت تلك الشـعرات البيضـاء التي بدأت تغزو رأسـه ، و أصـبح بذلك يضـحك على نفسـه أولا ، ثم يضـحك على الجميع بمعسول الكلام .

كم من الوقت مضـــى على زواجهما .. لا أحد يعرف .. غير أن المستور بدأ يظهر على صفحات الجرائد و المجلات ، بل بعض القنوات التلفازية التي تهتم بهذا النوع من الأخبار البراقة . أخبار زواج و طلاق المشـــاهير من الفنانين و الفنانات ، أخبار ســـهرات رجال الأعمال بكل ألوانها و علاقاتهم المريبة بعضهم ببعض .

و بدأت الحرب الإعلامية بين الطرفين .. في شـــتى وســـائل الإعلام المسموعة و المقروءة و المرئية ، و امتدت تلك الحرب الشعواء إلى أقسام البوليس ، و تعدت ذلك إلى المحاكم في كل البلدان .

هو اتهمها بســـرقة فيلته و ما بها من تحف نادرة ، ومجوهرات تقدر بالملايين و النصـــب عليه بواســـطة أخيها التي عينته في أحد الشركات المشتركة بينهما ..

هي أكدت أنها تزوجته – زواجا عرفيا - أمام عدد لا بأس به من الناس ، و أنها قضت معه ليلة وحيدة في قصره المنيف في الطريق الصـحراوي ، بعيدا عن الأعين ، بل بعيدا عن الصـحافة و مصـوريها المنتشرين في كل مكان .

و هي أيضـــا قالت إنها أحضـــرت معها بعض المفارش النادرة و الأغراض المنزلية في الزيارة الثانية لإعداد القصـــر و إتمام الزواج حتى يليق بها و بزوجها .

و لم تكن الحرب سـهلة رغم وجود كثير من الثوابت ، إلا أن كل طرف منهما كان لديه العديد من كبار المحامين ، هم الذين يتفننون في تلفيق التهم ، و اختلاق الأباطيل .

قالت في المحكمة :

إنها تريد الطلاق منه ، لأن أخلاقه صعبة ، لا يستطيع أي إنسان أن يتحملها .

قال :

هي لا تعرف الاستقرار ، و أن حياتها الخاصـة تلطخ سـمعة إي إنسان شريف .

اتهمتـه بـالاســتيلاء على بعض مجوهراتهـا ، و أن هـذه المجوهرات مؤمن عليها في كبرى شركات التأمين العالمية .

قال :

بل هي التي استولت على الكثير من المشغولات الذهبية الموجودة في القصر ، و بعض التحف الفنية النادرة .

و اتهم أخاها بأنه سرق جميع ملابسه التي كانت في الفيلا التي استولت عليها ، و إن أخاها اختلس بعض أموال الشركة التي عين بها كمدير إداري.

قالت :

أن الفيلات تتبع ملكيتها الآن وعدادات الكهرباء تثبت ذلك ، و إن أخاها لم يأخذ من الشركة كما يدعي إلا راتبه الشهري ، و المكافآت المتفق عليها في العقد المبرم بينهم .

كانت التصريحات النارية على وجه صفحات الجرائد تدل على أن لا حل لهذه المشكلة العويصة .. اتهامات متبادلة من كلا الطرفين.

سألها القاضي :

ماذا تريدين ؟

قالت :

أريد الطلاق من هذا الرجل الذي شهر بي .

قال محاميها :

هناك أيضا مؤخر الطلاق ، و التعويض على التشهير بموكلتي .

قال الملياردير :

و لكنني لم أتزوج بها أصـــلا ، لا علنيا و لا ســـريا .. فأنا كما تعرفون لسـت زير نسـاء .. و أنا متزوج من سـيدة فاضـلة منذ أكثر من خمس وعشـرين سـنة .. العلاقة بيني و بينها علاقة عمل فقط من خلال الشركة التي كونتها لها ، و كنت معها شريكا .

قال محاميه :

لقد تقدم موكلي بالعديد من البلاغات إلى أقسـام الشـرطة ، يتهم فيه الأميرة سـيدة الأعمال بالنصـب و التزوير ، و قد وضـعت بين أيديكم هذه المحاضـر ، وهناك العديد من القضـايا بين الطرفين في المحاكم لم يفصـل فيها إلى الآن ، و أن هذه القضـية الجديدة لها أهداف أخرى غير التشهير بموكلي رجل الأعمال ، و محاولة ابتزازه .

سأله القاضي :

هل بعت للمدعية الفيلة مما تملكها ؟

قال الملياردير:

نعم ، لقد بعت لها هذه الفيلة ، و لكنها تعثرت في السـداد ، و تحت تصـرف سـيداتكم الشـيكات التي رفضـها البنك ، لعدم وجود الرصيد الكافي .

قال محامي الملياردير :

قدمت لسـيادتكم أيضـا بعض المحاضـر التي يتهمها به بعض رجال الأعمال هذه السـيدة سـواء في مصـر أو خارج مصـر يتهمونها بالنصب و التحايل عليهم في كثير من المشاريع الوهمية .

سأل القاضي الأميرة :

ما رأيك في هذا الكلام ؟

قالت الأميرة :

كل هذه المحاضر كيدية تقدم بها أصحاب زوجي رجل الأعمال الشهير ، حتى يشهر بي .

****

بعيدا عن المحاكم .. وحبالها الطويلة ، و ألاعيب المحامين .. و خصوصا أن كل طرف لديه من الأدلة ما يدين الآخر ، و أن الأمر سيطول و يطول إلى غير نهاية ..

تقدمت أخت الأميرة بحل وسط ، وهو التصالح الودي ، و أن يسحب كل من الطرفين البلاغات المقدمة ضد الآخر ، و أن يتنازل كل طرف عن القضايا المتبادلة في المحاكم ، و أن يرد كل طرف ما أخذه من الثاني .. و كان الحل الودي بجلوس الطرفين أمام بعض في حضور محامي لكل طرف ، ووضع الحروف على النقاط حتى تنتهي هذه الأزمة ، و لا يكون لها تأثير على الآخر ..

كانت أخت الأميرة إنسانة عاقلة .. لا تكاد تتكلم إلا حين تشعر أن الوضع يحتاج إلى كلامها ..

قالت و بكل صراحة :

أنا أعرف أن بينكم الكثير من الكراهية ، و لكن لابد من ان نصل إلى حل يرضي الطرفين ، لقد تكلمت مع كلا المحامين ، و نقلت إليهما الصورة كاملة .

و ارتضى الطرفين هذا الحل ، رغم أن النفوس تحمل ما تحمل من الكراهية و البغضاء ,

الأميرة أحست أنها و لأول مرة قد هزمت في معركة وهى التي لم تهزم من قبل في كل زيجاتها السابقة، و أنها قد خسرت الكثير مع هذا المصري الـ ....

هو يشعر بالإهانة ، و إنها سبب تلك الأزمات المالية التي يمر بها ، و أن وجهها النحس قد يسبب له الكوارث .

و أخير تم الطلاق الصوري ، و مزقت الورقة التي لم تظهر في المحاكم ، و خسرت هي بعض ملايين من المال حتى تعود إليها حريتها المفقودة ، و تستطيع ، أن تعود إلى السهر في الحفلات .

حب ضائع

سنوات و سنوات مضت و هي في عزلتها ، رغم وجود ابنتها الصغرى في نفس البيت ، و لكن كل في شأنه الخاص ,

قررت أن تخرج من عزلتها ، لقد وصلتها الأخبار بأن زوج ابنتها الكبرى قد توفي ، بعد سنوات من الزواج لم يرزقا فيها بأبناء .

قررت أن تسافر إل ابنتها فهى تعرف أن ابنتها تعمل في وظيفة هامة في احدى الشركات ، و إنها لا تستطيع أن تبتعد عن المدينة حتى في العطلات .

قررت أن تزور ابنتها ، و تضرب كل العصافير بحجر واحد ، أن تزور ابنتها التي لم تراها منذ سنوات مضت ، أن تخرج من عزلتها ، أن تجدد نشاطها و أفكارها .

ركبت الأوتوبيس المتجه إلى المدينة لأول مرة منذ سنوات ، و ها هو يسير بها بمحاذاة النيل على اليمين ، و الأرض الخضراء على الشمال ، و تبقى البيوت التي تشكو مثلها الوحدة .

وصلت أخيرا إلى القاهرة ، و أشارت إلى تاكسي ، و أعطته العنوان .

وصلت إلى العنوان بصعوبة بالغة ، فالعاصمة تعاني الزحام الشديد في كل شيء ، السيارات التي تسير متلاصقة ، و البشر أيضا متلاصقين .

يسير التاكسي بضعة مئات من الأمتار ، ثم يقف بعض الوقت كأنه عجوز يستريح من عناء السير ، ثم يسير مرة أخرى ، و هكذا .

صعدت على السلالم رغم وجود مصعد .. احضان و قبلات ، دموع الغربة كرذاذ المطر المتناثرة .

في الصباح كانت تعد طعام الإفطار لابنتها و يأكلان .

فإذا ما اقبل المساء اصطحبتها ابنتها إلى معالم القاهرة التي سمعت بها ، و لم تراها إلا في التلفاز في المسلسلات ، و هكذا مضت الأيام بطيئة ,

و فجأة رن الهاتف ، امسكت ابنتها الهاتف لتفاجأ بأن المتصلة جارة ابنتها الصغرى .

أخبرتها الجارة بأن ابنتها الصغرى ، قد خرجت من المنزل و لم تعد إلى البيت منذ أيام ، و إنها تدق عليها باب البيت حسب وصيتها ليل نهار و لا مجيب

قررت أن تعود إلى قريتها هي و ابنتها الكبرى للبحث غن الفتاة الغائبة ، فإذا بها تفاجأ بأن البنت الصغرى أخذت كل شيء الذهب و المال و ملابسها واختفت .

سألت كل الجيران ، سألت كل الأصدقاء ، فما وجدت اجابة شافية تريح قلبها ، و تدل على مكانها .

و لكن احدى صيقتها المقربات قالت لها إنها كانت ترافق شاب من شباب البلد . ذهبت إلى بيته لتفاجأ أنه هو الاخر اختفى بعد ان أخذ ما خف وزنه و غلا ثمنه ، و ترك البيت هو الآخر .

ذهبت إلى قسم الشرطة و عملت محضر هي و أهل الشاب للبحث عنهما بواسطة الشرطة .

و لكن الابنة الكبرى لم تطمئن إلى ذلك ، أتصلت بمحل عملها بأحد زملائها كان والده لواء في المحافظة .

رفع الأب سماعة الهاتف و اتصل بمحافظة الشرقية ، و أبلغ عن الحادث ، وبدأ البحث عنهما .

أيام مضت ، كان القلق هو الصديق الوحيد ، فقد تركتها ابنتها الكبرى للعودة إلى عملها ، على أن تعود يوم الخميس بعد الظهر لتمكث معها الخميس و الجمعة ، و أوصتها إذا حدث جديد أن تتصل لها ، و لن تتصل الأم بطبيعة الحال ، فلم يرد أي شيء بخصوصهما من المحافظة .

كانت القلق قد استبد بالأم ، و ووضعت نصب عينيها إنها لن تجد ابنتها مرة أخرى .

جاءت ابنتها الكبرى يوم الخميس كما وعدت أمها ، فلم تجد أي جديد ، اتصلت بزميلها مرة أخرى ، و دارت الاتصالات مرة أخرى .

و اخيرا وجدت الشرطة الفتاة في القاهرة لوحدها في إحدى الفنادق الرخيصة في العتبة .

و تم استجواب الفتاة في المحافظة ، لتقول أن صديقها تركها بعد أن أخذ منها الذهب ، و إنها لا تعرف مكانه .

و رغم ذلك لم تصدق الشرطة ما قالته الفتاة ، و استمرت في مراقبة الفتاة ، و مراقبة تليفون اللوكاندة ، و الموبايل عسى أن تتصل بصديقه .

مرت أيام ، و لم تبلغ الشرطة أم الفتاة أو أختها عن وجودها ، و اشتدت المراقبة عليها ، لعلها تتصل بصديقها ، أو يتصل هو بها ،

و بالفعل حدث ما تقومه رجال المباحث ، فقد اتصل بها ، و حددت الشرطة مكانه ، و تم القبض عليه .

اتصلت الشرطة بأخت الفتاة و أمها ، و أهل الفتى ، ولكن الشرطة لم تفرج عنهما لحين استكمال التحقيقات ، و عرفوا أنه قد تزوجها عرفي ، و لكنه لم يقترب منها ، و ظل كل واحد منهما في مكان آخر ، حتى مغادرة القاهرة .

و في القاهرة اسكنها فندق رخيص حتى يجد مكانا مناسبا للسكن .

زوجة وصديق زوجها

امرأة جميلة حقا .. كانت تخرج ســـيارة حمراء من فيلاتها في الساعة الثامنة صباحا كل يوم ، و بعد لحظات من خروجها كانت تتبعها سيارة أخرى سوداء سيارة زوجها ، و تعود السيارتان في نفس التوقيت

، في الساعة السادسة مساء، ما عدا يوم الجمعة و الإجازات . و ما إن يدخلا الفيلا حتى الصباح لا يبرحاها إلا في صباح اليوم التالي .

كان جمالها الصـــارخ أشـــبه بجمال ممثلات هوليوود ، بياض و شـــعر ذهبي ، و عيون رمادية ، و قد كأن يد فنان من فناني عصـــر النهضة قد نحتها .

و قليلا ما تراهما قد غيرا عادتهما . إلا في بعض المناســـبات حيث يخرجان ســـويا .. تلك كانت حياتهما المســـتمرة منذ ما يقرب من عشر سنوات أو أكثر .. دقة في النظام .

ذات يوم حضـرت هي و لم تحضـر السـيارة الأخرى بزوجها ، مضـــى الوقت و اقتربت الســـاعة من العاشـــرة ، جاءت ســـيارة أخرى ووقفت أمام الباب ، ولم تدخل السيارة ، إلا أن صـاحبها قد ترجل منها ، و دخـل الفيلا .. و لم تمض إلا لحظـات حتى خرج الرجـل مهرولا ، و لأولا مرة منذ أن عرفنا أصـحاب هذه الفيلا ، نسـمع صـوت المرأة .. و نسمع صوت هذا الرجل وهو يصيح :

زوجك هو الذي طلب مني ذلك .. و تصـيح المرأة و قد أمسـكت بحذائها :

أخرج يا كلب ، يا ابن الكلاب ..

و انطلق سيل جارف من السباب من هذا الفم الصغير .

لم تمض غير وقت قصـير من صـياحها .. حتى ذهبت إلى قسـم الشـرطة لتحرر محضـرا بهذه الواقعة المثيرة .. و رغم نظرات الضـابط المشدوه لها ، إلا إنه حرر لها المحضر .

في المحكمة وقفت السيدة و قد ارتدت فستان أسود يبرز مفاتن جسدها تشرح الحادث ، قالت :

إنها تزوجت هذا الرجل منذ ما يزيد عن عشر سنوات ، ومع ذلك لا زالت عذراء .وقالت إنها فوجئت بعد أن دخل بها بأنه لا يستطيع معاشرتها معاشرة الأزواج وأنه أوهمها بأنه "مربوط" بعمل سفلي، وسيعالج نفسه عند الشيوخ، ومع ذلك مرت الشهور والسنين دون أن ينجح في الدخول بها.

وأضافت أنها صبرت على ذلك وقررت أن ترضى بهذه الحياة وتتخلى عن حقوقها كزوجة وامرأة ، ولا تطلب الطلاق بعد أن رأت معاملته الحسنة لها، وكانت تحاول بكل الطرق علاجه، إلى أن فوجئت بصديقه المقرب والذي كان يزورهما في المنزل باستمرار، يأتي إليها فجأة في غير وجود زوجها ليطلب معاشرتها، لأن الزوج طلب منه الدخول بها نيابة عنه حتى لا يحرمها من حقها الطبيعي!

أخرجت من حقيبتها منديلا ، و مسحت بعض الدموع التي برزت من عينيها ، وتماسكت بقدر ما تستطيع و أضافت أنها أصيبت بصدمة شديدة واتصلت على محمول زوجها ففوجئت به يخبرها بموافقته، بل ولا يمانع في حدوث ذلك أثناء وجوده في المنزل تكريما لها على صبرها عليه!!

وقف الزوج أمام القاضي و أكد كلام زوجته وبرر ذلك بأنه لا يستطيع الاستغناء عنها، وأنه يدرك أنها ستطلب منه الطلاق يوما ما، ففكر في هذا الطريق السهل ليوفر لها ما لم يستطع كزوج!

صـمت القاضـي من الذهول فترة ، وهو ينظر إلى الرجل نظرة احتقار .. ونطق بالحكم التالي :

الحبس سنة لتحريض الزوجة على الزنا..

من حق الزوجة الطلاق والتعويض المادي عن سنوات الحرمان ودفع المؤخر كاملا والمسجل في عقد زواجهما وقيمته 150 ألف جنيه ، و الفيلا .

لم يمض وقت كبير عل ذلك الحادث الذي ترك آثاره على المنطقة كلها ، تزايدت الاشاعات ، ثم فجأة طبيعتنا خبا كل شيء ، و لم تعد الحادث تردد على أفواه الناس ، حتى هؤلاء الجيران قد نسو تلك الحادثة .

و ذات يوم في الصباح الباكر ، كانت هناك عربات نقل لإحدى الشركات تنقل العفش من داخل الفيلا ، و عادت الشائعات مرة أخرى .

و انتظر الجيران أن يروا العفش القادم ، و السكان الجدد دون جدوى .

ثم حدث ما لم يكن متوقعا آلات الهدم تهدم هذه التحفة الفنية الرائعة ، و آلات البناء تعد الفيلا للمبنى الجديد .

خلال أشهر عديدة كانت هناك بناية من أعلى البنيات في المنطقة .

امرأة بلا هوية

هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا هوية ، بلا جنسية ، بلا وطن ينتمي إليه ، بل أهل يعرفهم .. و إن كان يعيش بين أناس يعرفهم و يعرفونه ، يحبهم و يحبونه .

تلك هي مشكلة زوجة معوض صاحب محل تأجير معدات النقاشة الذي ورثها عن أبيه مع أخوانه و أخوته .

تخطت الزوجة الثلاثين من عمرها بسنوات قليلة ، و خلال زواجها الذي لم يتعدى الخمس سنوات أنجبت ثلاث فتيات في عمر الزهور .

و حكايتها أغرب من الخيال ، بدأت منذ ما يقرب عن الخمسة و الثلاثين عاما .. حينما تقدم فتى خليجي الجنسية إلى خطبة فتاة من فتيات أحيائنا الشعبية الفقيرة ، و بعد العديد من الإغراءات التي بذلها الشاب الخليجي لهذه الأسرة التي ترزح تحت خط الفقر ، الفقر المدقع ، تمت الخطبة .

أحس رب الأسرة الفقيرة أن هذا الشاب جاء ينتشلهم من أنياب الفقر الذي غرس مخالبه في هذه الشقة التي لا تتعدى الخمسين مترا .. كان من وعود الشاب أو إغراءاته أن يستأجر لعروسه شقة في أحد الأحياء الراقية ، و أن يستأجر لأهلها بيت في نفس المنطقة .

وافق الأب دون تفكير ، ودون تردد ، فقد كانت الموضة في تلك الفترة في مصر في ذلك الوقت أن يتقدم أي شاب من أي جنسية عربية ، و خصوصا الخليجيين ، فيخطب ابنة أي أسرة من هذه الأسر الفقيرة .. البعض منهم كان يأخذ عروسه إلى بلده ، لتظل حبيسة هذا البلد .. لا تزور أهلها إلا بعد حين من الزمان قد يطول أو يقصر ، و البعض كان يعامل هذه الزوجة معاملة الخدم لأسرته ، و البعض كان يترك عروسه في بلدها ، ويزورها بين الحين و الحين .

تزوج الشـاب الخليجي من الفتاة بسـرعة ، و اسـتأجر لها شـقة خارج حيها الفقير ، و أسـس الشـقة بما يليق بمكانته ، و لم تمض السـنة الأولى من زواجهما حتى أنجبت طفلة .

كان الشاب قد قسم وقته خلال هذه السنة ، أحيانا يبقى في القاهرة أسـبوعا أو أسـبوعين ، ثم يسـافر إلى بلده ليمكث هناك عدة أشـهر ، ثم يعود إلى القاهرة مرة أخرى .. و هكذا .

سـافر الشـاب هذه المرة إلى بلده مع بذل وعد لعروسـه التي أنجبت لتوها ابنتها ، و مضـت فترة طويلة قبل أن يرسـل إليها مع أحد أصـدقائه قسيمة الزواج ، و أوصـى صـديقه بأن يفتح لها حسـابا في أحد البنوك ، لتعيش من أرباحه .

انقطعت أخباره نهائيا عن الأسـرة التي ذهبت في كل اتجاه ، تبحث عن قشـة تسـتنجد بها لمعرفة أخبار هذا العريس دون جدوى ، ورغم أن الشـاب ترك لدى عروسـه المصـرية صـور أوراقه .. صـورة الجنسية ، صورة عقد الزواج ، صورة شهادة ميلاد الابنة ، صورة عقد الإيجار ، كل ذلك باسمه .

مضـت السـنوات ، و الحياة كما تعلم لا تتوقف ، بل تسـير بطيئة أحيانا ، سريعة أحيانا أخرى .

و توالـت المشـاكل على الأم ، فمـا معهـا من مـال قد أخذ في النضـوب ، بل نفذ ، ورفض البنك أن يعطيها ما كانت تأخذه كل شـهر بسـبب خلو الرصـيد . اضـطرت أن تبيع أثاث بيتها شـيئا فشـيئا ، لتعول نفسـها و ابنتها ، و أخيرا رضـخت للأمر الواقع ، عادت إلى بيت أبيها

في منشية ناصر ، عادت إلى الفقر مرة أخرى لتعيش كما كانت تعيش ، ولكن هده المرة مع شابة في عمر الزهور .

كان الله في عون أبيها العجوز الذي هدته السنين ، وها هو يقف أمام المحل العتيق يبيع لمن يريد من أطفال الحي الحلوى ، أو كبارها بعض الحلويات ، أو الشاي و السكر ، و البهارات .

حاولت العمل ، و لكن أين لها العمل و هي لا تملك من الشهادات ما يمكنها من النزول إلى سوق العمل و هناك الآلاف ممن يحملون الشهادات لا يعملون و يعانون البطالة .

أصيبت الشابة بالعديد من الأمراض ، و شاء الله أن يختارها في رحمته ، ماتت ، وتركت ابنتها في رعاية جدها و إخوانها .

نست الأسرة أو تناست ذلك الشاب الخليجي ..

تقدم معوض لخطبة الفتاة الصغيرة ، وتم الزواج كعادتنا سريعا ، و يهنأ الزوجين بحياتهم .. و فجأة قبل أن يموت الجد ، يخرج الأوراق القديمة التي تخص حفيدته و يقدمها إلى معوض زوج حفيدته .

أصيب معوض بالدهشة الشديدة ، و احتفظ بالأوراق التي قدمت له، فهو قد تزوجها فقيرة ، وعاش معها فقيرة ، وعاشت معه على الحلوة و المرة ، دون أن يتبرم أي منهما بهذه الحياة ، أو يشكو من مصاعب الحياة .

تحت ضغط من زوجته ، بدأ معوض مشوار البحث عن والد زوجته ، سأل كل من يعرفه من الأصدقاء الذين يعملون في الخليج ، و كان كل منهما يقول له شيئا مختلفا عن الآخر ..

من وعده بالبحث عن أبيها في تلك المنطقة التي حددها له ، من قال له أن يذهب إلى السفارة ، و يسأل عن ذلك الرجل ، من نصحه بأن يرفع قضية يثبت فيها إثبات النسب ..

كل المحاولات باءت بالفشـــل ، وخصـــوصـــا بعد أن جاءه أحد أصدقائه قائلا له :

أن والد زوجتـه قد أنتقل إلى جوار ربـه ، و أنـه بعد أن ترك زوجته في القاهرة تزوج من ابنة عمه التي توفيت هي الأخرى ، و أن أولاده لا يعرفون شيئا عن هذا الموضوع ، و لا يريدون أن يعرفوا شيئا لم يقله والدهم لهم .

لجأ إلى السفارة ، وبعد التأكد من صحة الأوراق، أعطته السفارة تعويضا عبارة عن شقة تمليك ، وبعض المال .

قال لموظف السفارة :

أن زوجته لا تريد شيئا ، بل تريد أن يعترف بها .

و لكن موظف السـفارة ، قال له أن يرفع قضـية على أسـرتها ، وقد يكسبها .

و اسـتمر الوضـع على ما هو عليه ، كيف يرفع قضـية، و على من يرفعها ، على ورثة أبيها .

و كانت المشـــكلة الثانية التي واجهته هي المحامي ، فأين يجد محامي ، و من أين يعطيه ما يطلب ، و اســـتشـــار أحد المحامين الذين يأتون إلى محل التجليد المجاور .

قال له مستشار معروف :

هذه القضـية سـتطول ، و تمتد الى سـنوات ، لا يعلم الله مداها ، و سوف يرفعون هم عليك أيضا قضايا .

كانت زوجته معه ، تسـتمتع إلى أقوال المسـتشـار ، و فجأة قالت بصوت حزين :

دعنا من هذا الموال ، و انتبه لعملك و بيتك ، و سوف نعبش كما طنا ، لقد أخذتني فقيرة ، و رضيت بي هكذا .

ورقة زواج عرفي

طلبت أســـماء الطلاق من أخت زوجها المغترب في ليبيا .. دهشت سناء أخت زوجها من هذا الطلب الغريب .

قالت لها و بنبرة تدل على الاستياء و عدم الرضا :

ماذا حدث ، زوجك مسـافر إلى ليبيا ، يشـقى و يتعب من أجل أن يحسن مستواه و مستواك و مستوى أولادكما الثلاث .

قالت لها و هي تحاول أن تخرج ما في صدرها ما كبتته سنوات طويلة منذ أن تزوجت عثمان :

أنت صديقتي الوحيدة ، و أنت من أفتح لها صدري ، واشتكي همي ؛ زوجي الذي سافر إلى ليبيا كما تقولين ليحسن مستوى الجميع كما تزعمين ، يأتي و في يده شنطة أو شنطتين و بعض الأجهزة الكهربائية ، يعطينا كل واحد قطعة من الملابس ، ثم بعد يومين أو ثلاثة من حضوره يبدأ في بيع كل ما أحضره معه ، لماذا ؟ كي يصرفهم على مزاجه ،كي يشتري المخدرات ، و يجلس على المقهي و يصرف على أصحابه الـــ ... لم يفعل مثلما يفعل غيره ممن يسافر إلى بلاد الله ، لم يشتر أرض ليبني عليها بيت لنا ، لم يشتر حتى شقة أوسع من هذا الحق الذي نعيش فيه .. كل همه أن يعبث بجسدي المباح له ، بعد أن يغيب سنة أو سنتين .. يسافر و يرجع كل مرة مولاي كما خلقتني .. على يدك لا يرسل مصروف للبيت ، إيجار للشقة ، و عندما فاض بي شغلت الواد الكبير – كما تعرفين – في أحد الفنادق ، وهو لم يحصل على الشهادة بعد ، أخرجت البنت من المدرسة لتعمل في محل بائعة في وسط البلد ، , أنا أيضا أعمل في البيوت لكي أقدر على مصاريف البيت .. حتى الولد الصغير لا يريد أن يكمل تعليمه .. اكتشفت أنه لا يذهب إلى المدرسة ، بل يذهب إلى ورشة أخي للسيارات .

قاطعتها سناء أخت زوجها مواسية لها :

بكرة الحال يتعدل .

قالت لها أسماء بعصبية :

لا أظن أن الوضع سيتعدل أبدا ، سوف يستمر الحال على ما هو عليه ، وقد يزداد سواء ، سأطلب الطلاق حتى أستطيع أن أخذ معاش أبي ، فنواة تسند الزير .

فشلت سناء في كل محاولتها ، و قالت لها :

عندما يتصل سوف أخبره بما تريدين .

قالت لها أسماء مهددة :

إذا رفض سوف أرفع عليه قضية ، لأطلب فيها الطلاق للضرر .

و تم الطلاق بأسرع مما تتوقع ، كان شرطه الوحيد أن تترك له الأولاد حسب القانون .

و أخيرا نالت حريتها ، و بدأت في جمع أشيائها و العودة إلى بيت أبيها ، و بدأت في إجراء معاملات المعاش .

في بيت أبيها ، كانت أمها و أخيها وزوجها و أولادهما .. اضطرت إلى النوم بجوار أمها على مرتبة في الأرض .

بعد خناقات شبه يومية ، و على أشياء تافهة ، اضطرت أن تنزل، و تخدم في البيوت حتى تغيب أطول فترة عن البيت .

خلال عودتها اليومية إلى البيت ،لمحت شابا - يجلس على باب أحد المحال المتراصة على الجانبين في الحي - ينظر إليها بإعجاب .

و كان اعجابه لها بسبب قوامها البديع الملفوف القوام ، ثم هي في أطول منه بقليل .

في أول الأمر تجاهلت تلك النظرات الجريئة التي تكاد تلتهما التهاما في الإياب و الذهاب .. و لكن حينما بدأ في مغازلتها ، كشرت في وجه في بادئ الأمر تكشيرة تدل على عدم رضاها ، ثم ضحكت بعد ذلك ، حينما وجدت ذلك الشاب الألدغ في بعض الحروف ،لا يستطيع نطقها بصورتها الصحيحة .

كانت تسمع كلماته و تضحك ، و لكنها تسير مسيرتها المعتادة بخطواتها السريعة ، ومع مرور الوقت بدأت في السير ببطئ و تمهل ، هو لم يتحرك من مكانه .. الشيشة في فمه يدخن منها ..

و حينما شعر بخطواتها البطيئة نحو ، عرف أنها تريد أن تحدثه .. جعلها تسير بضع خطوات ، ثم لحق بها ، و أشار إليها أن تخرج بعيدا عن الحي .

لأول مرة شعرت أن هناك ما يحرك قلبها ، ذلك القلب الذي أغلقته منذ طلاقها ، أو قبل ذلك نتيجة المشاكل .. شعرت بانجذاب نحوه .

و تكرر اللقاء ، و بدأ كل منهما يبوح بالأسرار التي يختزنها حكت قصتها كاملة ، و لم تحذف منها شيء ، و لم تذوق كلامها .

بدأ في حكاية قصصه ، قصص زواجه من امرأتين ، و كل منهما له منها أولاد ، و لكنها لم يشعر بالسعادة أبدا ، فالأولى رغم الحب المتبادل بينهما من أيام الدراسة ، إلا إنها بعد الزواج كانت تشعره إنها ليست أنثى ، فملابسها التي تدخل بها المطبخ ، هي نفس الملابس التي تنام بها ، بكل ما تحمل من روائح ، و رغم إنه كان يشتري لها ما يراه

من أدوات الزينة و العطور إلا إنها كانت لا تســـتخدم ذلك .. و كان المقهى هو وســيلته الوحيدة للهروب من البيت ، و لا يعود إلى البيت إلا بعد الفجر ، لينام قليلا ، و يعود إلى عمله .

أما زوجته الثانية فرغم جمالها ، و جســـدها البض ، و أنوثها الطاغية ، إلا إنها كانت عصبية المزاج ، كما يقول المثل ،" تخناق ذباب وجهها " ، و رغم ذلك استمر الزواج لمدة ثلاث سنوات ، و لكن الوضع لم يتغير رغم إنها أنجبت منه ولد و بنت ، و للمرة الثانية كان الهروب إلى المقهى ، و لكنه لم تكن الأولى ، فقد طلبت الطلاق ، و حكم لها بنفقة ، و لكنه تهرب من النفقة . و حكمت بحبسه .

و رغم ذلك وافقت على الزواج منه ، و كان الشـرط الوحيد له ، أن يكون أولادها في بيتها مع جدتهم .

في البداية تم تنفيد هدا الشـرط ، ولكن بعد فترة اسـتردت أولادها نتيجة للمشـاكل التي تحدث بعد وفاة امها ، ووافق فهو لا يعود إلى البيت إلا بعد انتصاف الليل ، والجميع نيام .

هكذا أصبحت حياته ، فسيدة زوجته الجديدة ، تعمل لتعول نفسها و أولادها ، و هو أيضا يعمل ليعول نفسه .

كانت تزوره في المحل حينما تحتاج إلى شـــيء ، أو حتى تحتاج إلى رؤيته ، فكان يترك عمله ، ويسير معها .

كان الحب بينهما يختلف عن الحب الذي عاشـــه في زواجه من قبل .

كانت تهيء له أسباب السعادة ، كل السعادة ، فهي حينما تنام في انتظاره ، كانت ترتدي قميص نوم شفاف ، بل و تتزين ، و تتعطر .

بدأ يخف ذهابه إلى القهوة ن و يعود إلى البيت قبل انتصاف الليل ، و يأكل معها بعد أن تحبس أولادا في حجرتهم.

أنا و المتاعب جملة

قالت بصوتها الحزين:

أنا فتاة جامعية. أقف على أعتاب عامي الثالث بعد العشـــرين. ليس في حياتي ما يميزها أو يميزني عن الأخريات. بل أكاد أكون صـــورة كربونية لفتيات هذه الأيام ممن قتلهن الملل وهن يقفن في محطات الحياة في انتظار قطار الزواج أو العمل أو كلاهما معا. أكاد لا

أقوم بأي عمل يمكن وصــفه بأنه منتج مفيد . نهاري كله نوم. وفي الليل أستلقي على ذات السرير أمسك في يدي " الريموت كنترول " وأمامي التلفاز أمضــي الليل أتســكع بين القنوات المملة ، التي تكرر ما تقدم من أفلام و مسلسلات ، و مناقشات عقيمة تبعث على الملل الذي يزداد مع مرور الوقت ، و تبعث الكآبة تدخل نفوسنا ، موضــوعات لا تهم الشباب ، بل لا تهم الرجل و المرأة ، حتى شروق الشمس يتخللها بعض استراحات هاتفية مع بعض الصديقات اللاتي يشكين ممَّا أشكو منه .

أكتفي بما قدمت من ملامح عن حياتي متجاوزة عن تفاصــيل لا علاقة لها بما أنا مقدمة على ذكره. بادئة بالقول أني كنت أنتهز فرصــة ســفري مع الأهل لتعلم قيادة الســيارات حتى أصــبحت أجيدها إلى حد كبير, هذا فضلاً عن أني كنت أنتهز فرصة نوم الوالد لأقوم بقيادة سيارة الوالد في الشارع المجاور لبيتنا. لمجرد أني أجد متعة في ذلك .

ذات ليلة... وأنا مستلقية على فراشي طرأت في خاطري فكرة لم أفكر في عواقبها بقدر ما فكرت في تنفيذها بأي وســيلة. اســتدعيت الخادمة وطلبت منها ارتداء الطرحة والعباءة اســتعداداً للخروج. أما أنا فقد تســللت إلى غرفة أحد أخوتي وأخذت منها ثوباً وعدت إلى غرفتي لأرتدي ملابس الشــباب مزيلة كل مظاهر الأنوثة عن ملامحي. ثم جاء الدور على والدي الذي تسللت إلى غرفته واستوليت على مفتاح سيارته على أســاس أنها " أتوماتيك " ولها " هيبة " لأرقامها الدبلوماســية قد تصرف أنظار المرور أو الشرطة أو الآخرين عني .

عندما أعلنت ساعتي انتصاف الليل كنت أشق طريقي خارج المنزل بسيارة أقودها بنفسي وقد ارتديت ملابس الرجال. في البداية تملكني شعور بالخوف والقلق والاضطراب ولكن سرعان ما أخذت هذه المشاعر في التلاشي وبدأت في الإحساس بالثقة في نفسي لاسيما وقد سرت في عدد من الشوارع الرئيسية دونما أي مشكلة .

في شمال المدينة وفي أحد الشوارع الشهيرة توقفت عند إشارة حمراء وتوقفت إلى الجوار مني سيارة " سبور " ورغم أن زجاج الباب كان مغلقاً إلا أنه لم يتمكن من حجب صوت الموسيقى التي كانت تنبعث بشده من سيارتهم وما أن نظرت صوبهم حتى وجدت ثلاثتهم ينظرون إليّ ، و إلى الخادمة .

أصابني قدر من الارتباك إذ لاحظت أنهم ينظرون إليّ ويشيرون بأيديهم تجاه الخادمة. وحينها أدركت أني قد أخطأت على أساس أن طبيعة الأمور هو أن تجلس الخادمة في المقعد الخلفي وليس إلى الجوار مني وقد كان وجودها إلى جانبي ملفتاً للنظر. سرت بسرعة بعد أن تحولت الإشارة إلى الضوء الأخضر وقررت العودة إلى المنزل وقد عاد الخوف يتسرب إلى نفسي. وما أن هممت بالدوران للعودة حتى أتت سيارة مسرعة من الجهة اليمنى ألجأتني إلى الوقوف بقوة نتج عنها سقوط الغترة وظهور شعري الحريمي وكشف هويتي المزيفة

لم تكن سيارة الشباب الثلاثة قد ابتعدت كثيراً, وبمجرد أن لمح أحد الشباب شعري أشار على زميليه بالعودة لملاحقتي فأسرعت بالسيارة فأسرعوا خلفي وما أن بلغنا جزءاً غير مضاء من خط الخدمة حتى تجاوزوني بسيارتهم وأجبروني على التوقف .

خرج اثنان منهم وتوجها مهرولين تجاه سيارتنا. أحدهما توجه إلى الباب الأيمن حيث تجلس الخادمة وقام بدفعها إلى الداخل وجلس إلى جوارها. والثاني فتح الباب المجاور لي وقام بدفعي إلى الداخل بعد أن أحكم قبضته على المقود وساقه اليمني على الفرامل .صرخت بصوت عال لعلي ألفت نظر أحد المارة أو المجاورين ولكن لا فائدة حيث أحكم إغلاق زجاج السيارة ورفع صوت المسجل وأنطلق بسرعة خلف سيارتهم التي يقودها ثالثهم.

اصابني شبه انهيار وأخذت أبكي بحرقه وأنا أشاهد السيارة تنطلق بسرعة غير طبيعية إلى خارج المدينة حيث تتناقص المباني و الإضاءة. وعندما لاحظ قائد السيارة ذلك أخذ يطمئنني بقوله: والله لا تخافي... اطمئني واهدئي, ما حنسوي شئ يزعلك. وما هي إلا دقائق حتى توقفت السيارة الاولى أمام إحدى المقاهي الواقعة خارج نطاق العمران في منطقة يسودها الظلام الدامس فخرج منها الشاب الثالث وقام بفتح البوابة ودخل وأشار إليهما بالدخول ثم أغلق البوابة. حاولت المقاومة وتشبثت للبقاء داخل السيارة إلا انه سرعان ما سحبني بالقوة بل حملني إلى الغرفة الرئيسية وألقي بي, ثم أدخلوا عليّ الخادمة وهي تبكي وهم يسحبونها على الأرض.

ارتميت على قدم أحدهم وهو الذي شعرت أنه أكبرهم سناً وهو الذي يقوم بتوجيه الأوامر فيطاع. فرفع رأسي إلى الأعلى رافضاً أن أقبل قدمه ثم سألني قائلاً:

هل أنت بنت أم متزوجة?

فصرخت في وجهه:

حرام عليك.. اتق الله.. أنا بنت... والله بنت.

فقـاطعني خلاص.. خلاص.. لا تخـافي ثم ذهـب إلى زميليـه وتحدث إليهما وكان واضـــحاً أنه يملي عليهما تعليمات تتعلق بوجوب المحافظة على حالتي هذه .

المهم... تناوبني الثلاثة واحد تلو الآخر مع حفاظهم على وعدهم بشأن عذريتي. خرجت إليهم باكية متوسلة أن يعيدوني إلى المنزل ولكن لا فائدة. وبعد أن تناولوا مأكولات كانت في الثلاجة فوجئت بأحدهم يسـحب الشـغالة إلى الغرفة ليقوم ثلاثتهم بالتناوب عليها مع ملاحظة أن أحداً منهم لم يتطرق إلى مسألة ما إذا كانت عذراء أم لا !!

كانت السـاعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصـف الليل عندما ركب اثنان منهم سيارتهما وقام الثالث " الزعيم " بقيادة سيارتنا بعد أن أصر على أن أنتقل إلى جواره في المقعد الأمامي بعد أن كنت قد جلســت في المقعد الخلفي أنا والخادمة .وفي الطريق أخذ في الاعتذار ثم سـألني عن اسمي ورقم هاتفي فلم أجبه .

وصـــلنا إلى المكان الذي أخذوني منه فطلبت منه أن يتقدم قليلاً وذلك بقصـــد الاقتراب من المنزل قدر الإمكان مع عدم علمهم بموقعه. فقال لي: فأين بيتكم

فأجبته على الفور: " هذا هو بيتنا "

وأشـــرت إلى إحدى الفلل المجاورة. وعلى الفور قام بإيقاف السيارة في خط الخدمة وأسرع مهرولاً إلى زميليه في السيارة الأخرى التي كانت تسير خلفنا. وما هي إلا ثوان حتى اختفوا تماماً .

لقد أعياني البكاء وأرهقني الصياح فأصبحت شبه منهارة من هول الموقف ورغم أني لم أكن في وضع يسمح لي بقيادة السيارة مرة أخرى إلا أني أصررت على التماسك قدر الإمكان وقد اقتربت الساعة من الثالثة فجراً. إلا أني سرعان ما أصبت بصدمه أخرى عندما لم أعثر على " البرنيطة " في السيارة فقررت أن أستقل سيارة أجره بعد أن تلفعت بعباءة الخادمة. ركبنا سيارة ليموزين أخذ سائقها - وهو أسيوي - ينظر إلينا بنظرات الريبة ثم قال لنا بلغة عربية ركيكة :

لماذا لا نذهب جميعاً إلى منزلي ونشرب الشاي مع زملائي في السكن وفي الصباح أوصلكم حيث ترغبون .وهنا صرخت فيه صرخة وقمت بفتح باب السيارة فأوقفها على الفور وصاح: خلاص.. خلاص أنزلوا يا ....

وتلفظ بلفظ قذر. لاحظت بعض السيارات أن هناك أمراً غير طبيعي يحدث في الشارع فتوالت وتتابعت علينا واحدة تلو الأخرى... كل يعرض علينا خدماته .حتى أتى فرج الله بسيارة ليموزين يقودها رجل كبير ملتح توسمت فيه الخير .

وبالفعل قام بإيصالي إلى المنزل ومن خلفه عدد من السيارات كانت تتبعه حتى المنزل. دخلت المنزل مع أذان الفجر الأول. الكل نيام لم ألحظ أي شيء غير طبيعي ولم يتبق من مشكلتي سوى سيارة والدي وكيفية اعادتها إلى المنزل. أوعزت إلى الخادمة بأيقاظ السائق لإعداد السيارة الصغرى ريثما أخلع الثوب الذي أرتديه وأعيد ترتيب نفسي .

وبعد نحو ربع ساعة وصلنا إلى سيارة الوالد وقررت الإبقاء على السيارة الصغرى في الشارع والعودة إلى المنزل بسيارة الوالد

حيث لن يلحظ أحد في المنزل عدم وجود السيارة الصغرى ولكن حصل ما لم يكن في الحسبان - وكأني بحاجة إلى المزيد من المتاعب - إذ بحثنا عن مفتاح سيارة الوالد فلم نجده داخلها ولا خارجها فأسرعنا إلى المنزل وأخذنا المفتاح الاحتياطي وعدنا بسرعة إلى السيارة .

وعبســـت الدنيا في وجهي مرة أخرى - كأني بحاجة إلى المزيد من المتاعب - إذ ما أن لاحت لنا السيارة من على بعد إلا ولاحظنا وجود ســـيارة إحدى الدوريات تقف إلى الجوار منها واثنين من رجال الأمن يحومان حولها. كاد أن يغمى عليّ من هذا الحظ التعس لولا أن فرج الله قد أتى إذ عاد رجلا الأمن إلى ســـيارتهما وغادرا الموقع. وما أن ابتعدا قليلاً حتى أوقفنا سيارتنا وأسرعنا نحو سيارتنا وقام السائق بقيادتها إلى المنزل و إدخالها إلى الجراج وما كدنا نفعل حتى ســـمعنا أذان الفجر ورأينا الضوء في غرفة الوالد إلا أن كلا منا أنطلق إلى غرفته في سكون وحتى اليوم ورغم انقضاء نحو ثلاثة أسابيع على هذه الواقعة لم يعلم بها أحد سوى الخادمة أما السائق فلا يعلم إلا عن الجزئية الخاصة بالسيارة دون ملابساتها أو ما سبقها من أحداث .

من المؤكد أني قد أطلت عليك ولكن صــدقني أن هناك كثيرا من التفاصــيل لم أرغب في ذكرها لاســيما الآثار النفســية التي أعاني منها نتيجة هول ما تعرضـــت له. فهل أبلغ والدي واخواني عن الواقعة أم أدعها تمر وأحاول نسيانها وأترك الأوغاد طلقاء دون عقاب يبحثون عن ضحية أخرى "

زواج نور

خطبت نور لأبن عمتها ، و كان الاثنان على علاقة حب أمتدت لسنوات طوال خلال فترة المراهقة ، ثم الشباب ، وتزوجا بعد أن أنهت نور دراستها في يوم زفافها كانت أول مرة تضع نور مساحيق التجميل كانت مختلفة تماما وصارت جميلة جدا، وخطفت نور الأنظار ذلك اليوم وخصوصا زوجها حيث تعود الجميع على رؤية نور بطبيعتها بدون أي مساحيق تجميل، انتهت حفلة الزفاف وذهب الزوجان إلى عشهما ليطفئ ظمأ السنين الملتهب ، خروج للتنزه و السهر ، ثم ليل تضاء فيه الأنوار الحمراء .

مر أول شهر من الزواج ثم عاد الزوج إلى العمل مجددا بعد أن انتهت عطلة زواجه. وفي أول يوم عمل بعد الزواج، كان متشوقا جدا للعودة إلى المنزل ليكون مع زوجته فقد أشتاق إليها، عاد الزوج إلى البيت بعد انتهاءه من العمل، وجد البيت مرتب ونظيف وتفوح منه رائحة الطعام فدخل إلى المطبخ فرأى زوجته نور ترتدي عباءة المنزل وشعرها غير مرتب وليس على وجهها أي من مساحيق التجميل وتفوح منها رائحة الطعام.

غضب الزوج من ذلك المنظر وخرج من المطبخ وأنتظر نور حتى انتهت من تحضير الطعام، و إعداد المائدة ، وجلسا يتناولان الطعام سويا كانت نور تأكل مع نفسها ولا تهتم بإطعام زوجها ، كما كانت تفعل في شهر العسل ، ولم تقوم بتدليله كما كانت تفعل أيام حبهما ، فهي نسيت كيف تدلل زوجها، بدء الزوج بإطعام نور في فمها لتتعلم كيف يكون التدليل ولكن لا فائدة.

وجاء وقت النوم غيرت نور ملابسها ، و ارتدت بيجامة واسعة خضراء وذهبت في النوم مباشرة وظل الزوجان على هذا الوضع فترة كبيرة و كان يحاول الزوج أن يلفت انتباه نور للأشياء التي يرغب بها لكنها لم تفهمه و ذات يوم كان الزوجان جالسان يشاهدان التلفاز ليلا، كانوا يشاهدون فيلم أجنبي و كانت البطلة مثيرة جدا في شكلها و أسلوبها و طريقة تعاملها مع زوجها. لاحظت نور أن زوجها كان شديد التركيز مع ذلك الفيلم ، و كم كان معجب بالبطلة شعرت نور بالغيرة تأكل عينيها ، تأكل قلبها أكلا ، و فكرت ما الذي يوجد بتلك الممثلة الجميلة لا يوجد فيها ، فهي لا تزيد عنها شيء في الجمال و الفرق بينهم فقط اهتمامها بنفسها

وشعرت نور بتقصيرها مع زوجها فمن الممكن ان يضيع زوجها منها وتفتنه سيدة اخرى جميلة متأنقة .

في اليوم التالي ذهب الزوج إلى العمل، وجلس مع أصدقاءه بعد العمل حتى لا يعود مبكرا للمنزل فهو لا يحب الجلوس مع زوجته فهي لا تعرف معنى الحياة الزوجية وعاد الزوج إلى البيت بعد منتصف الليل ، تفاجئ بما رآه فوجد البيت مظلم وبه أضاءه خفيفة التي كانت تصدر من الشموع والعشاء على طاولة الطعام والبيت رائحته عطر جميل. ووجد زوجته نائمة على الأريكة وشعرها مفرود بجوارها وعلى وجهها القليل من مساحيق التجميل حتى تبرز جمال ملامحها وكانت ترتدي قميص نوم وردي اللون وقصير وخفيف .

وضع الزوج يده على وجه زوجته النائمة ، وأخذ يمسح بيده على شعرها حتى استيقظت وابتسمت له ابتسامة خفيفة فسألها أين كانت تخفى كل ذلك الجمال. نظرت إلى الأرض خجلا واعتذرت له عن تقصيرها في حقه، وقضى الزوجين ليلة سعيدة حتى الصباح كلها حب وغزل، ومن وقتها صارت نور تهتم ببيتها ونفسها وزوجها وأصبح زوجها يحبها كثيرا.

لقد فهمت أن الرجل يحب المرأة الجميلة المتأنقة المظهر ، الطيبة الرائحة .

امرأة فوق الأربعين

ما إن تتخطى المرأة الأربعين حتى بتغير شكلها تغييرا جذريا ، ترى هضاب و تلال في جسدها من الأمام في بطنها ، ومن الخلف في أردفها، في الصدر ثديها و في الأرجل ، حتى الوجه ، و ألأمر و الأدهى أن أمراضا معروفة و غير معروفة تستوطن جسدها ، بلا رحمة إلا فيما ندر .

قادتني قدماي إلى الحي القديم الذي كنت أقطنه مع أسرتي ، حتى خرجت منه للزواج و لعوامل أخرى لا أذكرها الآن .. المهم إنني ملت قاصدا بيتنا الذي نشأت فيه طفولتي و مراهقتي ، و قبل أن أدلف إلى الباب ، سمعت من تنادي علي بصوتها الجهير .

الحقيقة إنني لم أعرفها في بادئ الأمر ، فشكلها غريب، و رغم إنني تفرست وجهها برهة من الزمن ، لم تسعفني الذاكرة لمعرفتها ، و حينما لاحظت في وجهي علامات الدهشة أسرعت هي قائلة :

أنا أماني . يا خائن ، نسيت العشرة ن نسيت إيانتا الجميلة

و الحق يقال إنني لم أعرفها ، فقد كانت أماني حينما تركت الحي فتاة جميلة يرتاح شعرها على كتفيها ، وجهها فيه ملامح الطفولة و البراءة ، يسعى كثير من الشياب إلى التقرب منها ، لعله يظفر منها بلحظة ، و التحدث إليها ، و لكنها لم تكن تعير أدنى اهتمام لأي من هؤلاء الشباب ، رغم إنها عشرية و تميل إلى التحدث إلى طوب الأرض التحدث بحرية وعفوية ، ولكن ليس لكل من هب ودب من الناس .

قالت و هي تضحك :

عوامل الزمن .. زواج و أولاد ، ستراهم بعد حين ، ثم بعض الأمراض التي تهاجم الإنسان ، السكر و الضغط ، وربما كان القلب أيضا . وربما السرطان .. الحمد لله . الشيخوخة هجمت مبكرة علي ، و لكني لا أهتم بكل هذا ، المهم الأولاد زهرة شبابي .

قلت لها من باب المجاملة ، و أنا أتألم من أجلها :

و لماذا لم يعالجك زوجك ؟

وبدا الحزن يظهر على وجهها الشاحب أيضا :

الرجل يعيني لم يتحمل متاعب الحياة ، و لم يتحملني ، و لم يتحمل الأولاد ، فذهب إلى رحمة الله .

قلت لها وعلامات الحزن تكسو وجهي :

البقية في حياتك

و ضحكت ضحكتها التي كنت متعودا عليها :

مات وشبع موت ، و ترك لي ثلاث بلاوي من بلاوي الزمان ، بنتان وولد .

قلت لها ممازحا :

ربنا يطرح البركة في بلاويك .

و ضحكت مرة أخرى و كأنها عرفت إنني بدأت أستعيد وعي السابق ، و قفشاتي اللاذعة .

و استطردت في حديثي :

و لكن ما الذي غيرك بهذا الشكل ؟

قالت و الحسرة ترسم علامات الخزن على وجهها الذي مازال به بعض مظاهر الجمال الذاهب :

هموم الزواج ، و تربية الأولاد ، و العمل ، و الأكل ، و الجلوس أمام التلفاز بعد إنهاء الواجبات المنزلية للأولاد .

و ابتسمت ابتسامة بلهاء و قلت لها :

أظن أن نسوان الحي أصبحوا مثلك بهذا الشكل .

قالت و هي ماتزال تضحك ضحكتها التي لم أسمعها منذ زمن :

أغلب نسوان الحي على تلك الشاكلة .

وقطع حديثنا أختي التي نصعد درجات السلم ،وهي تقول :

من زمان و أنت بعيد .. الحمد على السلامة ، أمتى جيت القاهرة ، أظن الجو في الكويت جميل .

و عانقتني ، و أمطرتني بالقبلات ، أطلع أولا ، سلم على الناس الذين لم تراهم منذ أكثر من عشرين سنة، و بعدين نكمل حديثكم الشيق مع أماني ، خليها تطلع تأكل أولادها ، زمانهم بيصوصوا بعد ما رجعوا من المدرسة ، و بعد ذلك تطلع و تكملوا كلامكم فوق ، و لا وحشتكم أيام زمان ، و الحديث على السلم ، و القبلات و الأحضان الدافئة ، و كأنها كانت تعرف العلاقة بيننا ، و ما يدور بيننا على السلم .

قالت أماني بلهجة المشتاقة :

أوعى تمشي ، أنا عاوزة أتكلم معاك ، من زمان لم أتكلم مع أحد .

و شعرت أن الزمان قد يغير الانسان ، و لكنه لن يغير طباعه التي اعتادها

المغفلة

منذ أيام دعوت إلى مكتبي مربية أولادي الفلبينية (فنجي) لكي أدفع لها حسابها

قلت لها : أجلس يا فنجي لكي نتحاسب أنت في الغالب في حاجة إلى النقود ، و لكنك خجولة لدرجة إنك لن تطلبيها بنفسك ، حسنا لقد اتفقنا على أن أدفع لك ثلاثين دولارا في الشهر .

قالت : أربعين

قلت : كلا ، هذا مسجل عندي ، كنت دائما أدفع للمربيات .ثلاثين دولارا

قالت : حسنا

لقد عملت لدينا شهرين .

قالت : شهرين و خمسة أيام .

قلت شهرين بالضبط ، هكذا مسجل عندي ، إذن تستحقين ستين دولارا نخصم منهم تسعة آحاد ، فأنت لم تعملي أيام الآحاد ، بل كنت تتنزهين مع أصحابك ، ثم ثلاثة أيام أعياد تذهبين مع اصحابك .

تضرج وجه فنجي باللون الأحمر الفاتح ، و عبثت أصابعها بأهداب فستانها ، و لكن ... لم تنبس بكلمة واحدة .

واصلت :

نخصم ثلاثة أيام أعياد إذن فالمجموع ثمان و اربعين دولارا

و كان ولدي مريضا أربعة أيام ، و لم تكن تدرسيه فيهم، ، و ثلاثة أيام كانت أسنانك تؤلمك ، فسمحت لك زوجتي بعدم التدريس بعد الغداء .

إذن اثنا عشر زائد سبعة، تسعة عشر ، نخصم الباقي ، هم واحد و أربعين دولارا ، مضبوط .

أحمرت عين فنجي اليسرى ، و امتلأت بالدموع ،و أرتعش ذقنها و سعلت بعصبية ، و تمخضت ، و لكن كالعادة لم تنبس بكلمة .

قلت:

قبيل رأس السنة كسرت فنجانا و طبقا نخصم دولارين للفنجان من ذلك ، فهو موروث ، و لكن سامحك الله ، عليه العوض .

و بسبب تقصيرك ، تسلق .. الشجرة و مزق سترته نخصم عشرة ،

و بسبب تقصيرك أيضا سرقت الخادمة ... حذاء . و من واجبك أن تراعي كل شيء فهذا من واجبك ، فأنت تتقاضين مرتبا ، و هكذا نخصم خمسة .

و في 19 يناير ، أخذت مني 10 دولارات.

همست ... لم آخذ

قلت : و لكن ذلك مسجل عندي

قالت : حسنا ، ليكن

واصلت من ... نخصم أربعة عشر .

امتلأت عيناها الاثنتان ، و ظهرت حبات العرق على أنفها الطويل الجميل .. يا للفتاة المسكينة .

قالت بصوت متهدج :

أخذت مرة واحدة من حرمكم ثلاثة دولارات ، لم أخذ غيرها .

قلت :

حقا انظري

و أنا لم أسجل ذلك في دفتري نخصم من .... الباقي دولارا

و مددت لها المبلغ ، ها هي نقودك

فأخذته ووضعته في جيبها ، دون أن تعد

و همست :

شكرا

انتفض علي الغضب ، و أخذت أروح وأجيء في الغرفة .

سألتها : شكرا على ماذا ؟

قالت : على النقود

قلت :

يا للشيطان ، و لكني نهبتك ، سلبتك ، لقد سرقت منك ، فعلام تقولين شكرا لي .

قالت :

في أماكن أخرى لم يعطوني شيئا .

قلت :

لم يعطوك

أ ليس هذا غريبا .

لقد مزحت معك .. لقنتك درسا قاسيا، سأعطيك نقودك كلها ، ها هي في المظروف ، لقد جهزتها لك ، ، و لكن هل يمكن أن تكوني عاجزة إلى هذه الدرجة ، لماذا لا تحتجين ، لماذا تسكتين ، هل يمكن ألا تكوني حادة الأنياب ، هل يمكن أن تكوني مغفلة إلى هذه الدرجة .

ابتسمت بعجز ، فقرأت على وجهها " يمكن " .

سألتها الصفح عن هذا الدرس القاسي و سلمتها المظروف براتبها كاملا .

نظرت إلي ، و عل غير العادة قبلتني في خدي.

مدت يدها و أعطتني الدولارات التي كنت أعطيتها سابقا ، و لكني لم أخذ ما قدمته لها .

شكرتني بخجل ، و خرجت

تطلعت في أثرها و فكرت .

ما أبشع أن تكون ضعيفا في هذه الدنيا ، فالضعف جريمة في حق النفس ، يجعل الآخرين يأكلون حقك .

امرأة محتالة

قبل أن يكون النصب جريمة ، فهو هواية ، و من العجب أن تلك الهواية الشائعة تكون غالبا عند الرجال ، إلا أن المرأة لها نصيبها في هذه الهواية المحببة إلى نفوسهم ،أو المهنة إن شئت أن تسميها .

أم خليل امرأة في العقد الرابع من عمرها ، ذات جمال جذاب، طول و عرض ما شاء الله ، سكنت المنطقة منذ أن تزوجت بأبو خليل ذلك النقاش الذي يعمل حسب الطلب ، يعمل و نادرا ما لا يعمل ، و لكنه يكفي بيته بالكاد ، و القاعدة الذهبية عنده الجودة من الموجودة .

اشتهرت بين نساء الحي بورعها ، و زهدها ، و تقوها ، فهي غالبا ما تصلي في الجامع المطل على الشارع الرئيسي حيث يوجد به مصلى للحريم ، صلاة الفجر والظهر و العصر و المغرب و العشاء ، و لا تترك فرضا من الفروض ، وكانت توزع على الفقراء بعض الأرغفة الممتلئة بالفول النابت كصدقة جارية بعد صلاة العصر.

بعض نساء المنطقة كانت تصلي لها "الصلاة النارية" كما كانت تطلب منهن, وبعضهن من كان يتخذنها قدوة لهن لما تحمله من إيمان وورع داخل قلبها,

مكانها المفضل التي تلجأ إليه هو جامع "أبو النور", ثقتهم العمياء بها جعلت منها الإنسانة الأجدر بتشغيل أموالهن "بالحلال."

كثر ذكرها في في حارة الصوافة و ما يليها من الحواري و الأزقة في المنطقة ، من خلال ما تداولنه النساء من واحدة إلى أخرى عن أخلاقها الحسنة وقلبها المؤمن والأرباح "الحلال" الطائلة المتوقعة من تشغيلها لأموالهم, فبيعت السيارات وبيعت البيوت وبيعت المصاغ, وعند مطالبة بعض النساء لها .... هددتهن بفضحهن بأمور تتعلق بالشرف انتهاء بتهديدات بتوريطهن بقضايا مخدرات ودعارة!!

وتماشيا مع بيئة هذه المنطقة فكان دور أبو خليل بعيدا عن التعامل مع النساء واقتصر على قيامه بإدارة المشاريع التجارية (الوهمية) مع زوجته ، و إن كان في تلك الفترة قد استطاع أن يشتري ثلاث عربات ربع نقل ، ثم عربة نصف نقل ، وها هو يجلس امام العربات و يجلس حوله السائقون يحتسون الشاي ، ويدخنون السجائر أو الشيشة ، و يتحدثون أحاديث ليس لها معنى حسب ما يخطر على بالهم من أحاديث ,

هذا ما جعل محل الحلاقة النسائي مقر لعمليات" أم خليل" ومكان لنشر أخبارها التي تريد إيصالها, فلعبت على وتر الدين وتسترت خلف أعمالها الخيرية الوهمية, واستطاعت اقتحام قلوب وعقول النساء, وتهافتوا عليها بأموالهن وأموال معارفهن من رجال ونساء حتى جمعت منهم ما

يقارب مليون جنيه على مدى عامين كاملين ، وهو مبلغ زهيد بالنسبة لها ، و لكنه مناسب لهذا الحي .

في بادئ الأمر كانت أم خليل تعطي بعض الفوائد لمن مضى على توظيف ماله عندها عام ، مع التأكيد على إن المبلغ الأصلي كما هو ، و إن أردت أن تزيده زادت الأرباح ،

صاحبت توحه أم محمد صاحبة الصالون النسائي الذي أصبح المقر الدائم للمعاملات المالية بين أم خليل و زبائنها . فلم تسلم هي الأخرى من خسارة أموالها التي تعبت سنين وهي تجمعها لتطوير عملها وحياة عائلتها بالإضافة إلى أموال أخرى أتت بها من معارفها وأصدقائها وأقاربه، ولكن ما كان يبعث في نفسها الأمل إنها كانت تكسب و تصرف على بيته، وبناتها بعد أن توفي زوجها.

تقول أم محمد" دخلت أم خليل محلي كزبونة وتكونت علاقة صداقة بيني وبين بناتها اللواتي كان يظهرن لي حبهم واحترامهم ,من بعدها اشتركت معي ومع زبوناتي الأخريات بالجمعيات التي كنا ننظمها من خلال دفع كل منهن مبلغ معين في الشهر ليتجمع شهريا مبلغ كبير تأخذه واحدة منا عن طريق القرعة ، أو حسب حاجة أي منا للمال لسداد بعض الديون , ومن بعدها انفتح المجال أمامها وأقامت علاقات مع زبوناتي لتعرض عليهن لاحقا الشراكة في أعمالها التجارية وإعطائهن أرباح حلال." حسب الشرع .

ما ساعد في بناء الثقة الكبيرة التي أخذتها أم خليل هو حضورها الدروس الدينية في الجامع, والتزامها الشديد بالصلاة ومحاولتها نصح

الغير بالالتزام والابتعاد عن المعاصي, وكانت تعطيني مبالغ تتراوح بين 5 إلى 7 آلاف جنيه بين فترة وأخرى كتبرع منها للعائلات الفقيرة ,هذا ما جعلنا نأتمنها على أموالنا وعلى الأرباح التي ستأتي من خلال وضعها معها بسبب استحالة تشغيل الأموال بأمور غير شرعية أو محرمة."

ولم يسلم من أم خليل أحد في الحارة حتى ابن أختها ،وهو شاب عمره 17 سنة يعمل في محل حلويات, حرم نفسه من كل شيء في الدنيا ليجمع هذا المبلغ, بعد إقناعه بالمبالغ الخيالية التي ستعود عليه جراء إيداع ماله معها.. ولكن بعد أن علم بحقيقتها ..انهار والآن أصبحت حالته النفسية سيئة جدا، قد كانت آماله أن يفتح محل حلويات لنفسه ، ثم يتزوج من إحدى بنات أم خليل .

."الحق يقال ما ساعد على نجاح أم محمد هو الطمع "بالأرباح الكبيرة التي سمعوا عنها.من النساء اللاتي يودعن عندها أموالهن .

عندما كانت النسوة يسألن عن أرباح المبالغ التي عندها كانت تقول لهم لا يحسد المال إلا صاحبه ،وتقول "لن أخبرك خوفا من العين وأنني إنسانة سيئة الحظ في الحياة لذلك يجب أن نداري أمورنا بالكتمان ,"ومن بعدها أصبحت "تسحب مني مبالغ إضافية لدرجة أنها طلبت مني أن أعطيها المبالغ الموجودة في دكان ابني ,

وتابعت أم محمد "في كل مرة أفتح معها موضوع الأرباح كانت تمسك القرآن وتحلف عليه كما كانت تحلف برؤوس بناتها أن الأمور تمشي كما تريد وأن الأرباح قادمة وكان موعدنا النهائي في شهر يونيو

لنكتشف لاحقا أن هذا الموعد كان فرصة للتصرف بأملاكها قبل أن تهرب."

واضافت ام محمد " الآن وبعد ما ورطتنا به أم خليل أقوم ببيع أثاث منزلنا كي نسدد الأموال الذي أخذته من أقاربي لتشغيلها معها."

هددت الضحايا بتوريطهن إذا أخبرن الشرطة.. وأنها تحمل جواز سفر لدولة اجنبية .

بعد أن كثرت مطالبة الضحايا لأم خليل بأموالهم وأموال أقاربهم التي أخذتها منهم, أصبحت تستخدم معهن أسلوب التهديد والترهيب مستغلة بيئتهم المحافظة ما جعلها تلعب في تهديداتها على عدة أوتار منها الشرف ومنها الإيذاء الجسدي.

ومن هذه التهديدات ما لم يتوقعوه وهو إخبارهم بأنها تحمل جواز سفر أجنبي وأنها محمية (حسب ما أخبرنا بعض الضحايا), وأنهم في حال أدعوا عليها ستعترف للشرطة بأنها "كانت تجمع الأموال في سبيل تنظيم أعمال تخريبية في البلد, في محاولة منها لإخافتهم من التورط بمثل هذه المواضيع خاصة وأن أغلب النساء قاموا بتشغيل أموالهن دون علم أزواجهن."

تقول أم خالد : بعد مطالبتي المستمرة لها, انتقلت معي من لهجة الطمأنة والوعود إلى لهجة أخرى فاجأتني بها عند تهديدها لي بحرقي "بماء النار" وحرق كل من يطرق بابها مطالبا بمال ,كما هددتني بإرسال عاهرات إلى بيتي وفضحي أمام الجميع وأولهم زوجي وكانت في كل

مرة تقول أنها محمية من عشائرها في بولاق, بالإضافة إلى حملها جواز سفر أجنبي ، وكل هذا ما بث الرعب في قلبي فعلا, ولم أعد أتصل بها".

أما أم رياض التي وقعت بفخ رسمته لها أم خليل, وذلك أثناء تناولها العشاء معها برفقة ابنتي أم خليل اللتان استغلتا انشغالها بالتحدث مع والدتهما, ليسرقوا هاتفها المحمول ويرسلوا رسائل "حب وغرام " لوالدهن (أبو خليل), وبعد فترة وأثناء مطالبة أم رياض بأموالها هددتها بالرسائل المرسلة لجوال أبو خليل وأنها "سوف تفضحها أمام زوجها ما لم تتوقف عن المطالبة بحقها."

أحد الضحايا هو من سلّم أم خليل للشرطة ، لقد دفع لها أكثر من مائة ألف جنيه ، طمعا في أن يكون ربحهم السنوي كما كانت تقول أم خليل، ما يزيد على ثلاثون ألف جنيه ، و أصل المبلغ ثابت . و الحق يقال إنني أعطته الدفعة الأولى ، و لكن من بعدها لم أقبض منها شيئا

قال الضحية : عندما ركضت باتجاهها محاولا مسكها من ذراعها حاولت الصراخ وتجمع الأهالي لتظهرني أني أحاول التحرش بها, ولكن بعد فقدانها الأمل في اقناع الجميع عند تسليمها لرجل الشرطة ، فلوحت له بالمال ، و لكنه كان شرطي شريف ، فرفض ما قدمته له .

في مركز الشرطة حاولت أم خليل بكل الوسائل أن تتهرب من تلك التهم الموجهة إليها ، و لكن كل سكان الحي قد تجمعوا في قسم الشرطة ، و لدى محاولة تفريقهم ، قال الجميع أنها نصبت عليهم ، و أنهم يريدون أموالهم .

وخرج نطاق الأزمة من يد أم خليل ، و خصوصا أن الجميع وقفوا ضدها ، و رغم أن ضابط الشرطة قال لهم جملته الشهيرة : " القانون لا يحمي المغفلين " و إن كل ما يستطيع أن يفعله هو كتابة محضر لكل واحدة منهن ، وخصوصا أنهم لا يملكون ايصالات .

في المحكمة ، كانت المفاجأة ، رغم أن أن الغالبية لم يكن معه إيصال بالمبلغ الي أعطاه لأم خليل ،

رفض أبو خليل أن يقف بجوار زوجته ، و أن يسدد ما عليها ، ولو بطريقة ودية ، فقد قرر أن يترك الحي ، و أن يأخذ بناته بعيدا عن هذا الحي ، و ليكن الله في عون أم خليل عندما تخرج من السجن .

كيف تروض قلبك

فؤاده كانت كأي بنت تحلم بمستقبل باهر ، ها هى تجتاز الثانوية العامة ، نجاح لم يكن يتوقعه أحد ، و اختارت كلية تتفق و طموحاتها ، كلية الاقتصاد .

فؤاده رغم صغر سنها كانت جميلة ، باهرة الجمال ، يزيد من حسنها ذلك الشعر الأسود الفاحم المنسدل على كتفيها ، ذلك الجسد الممتلئ أنوثة ، تبرز في صدرها ، تلك الخطوات التي تهتز لها أردفها .

رغم الامكانيات الضئيلة لوالدها البقال في الحي الشعبي - إلا أنه صمم على أن تكمل تعليمها مهما كلفه ذلك من جهد و من مال .

فجأة و أثناء سيرها لتجتاز الطريق لتركب الأوتوبيس ، صدمتها سيارة فخمة ، صدمة خفيفة ، و سقطت على الأرض ، ووقفت السيارة و نزل السائق أولا ، ثم صاحب السيارة ليطمئن على الفتاة .

سندها هو و السائق و أركبها السيارة ، و بعد أن أطمئن على سلامتها أوصلها إلى الجامعة .

و دار الحديث بينهما سجال ، ثم سألها متى ستنهي محاضراتها .

حددت له الموعد ، و عندما خرجت من الكلية وجدته أمام الباب في انتظارها ، و أوصلها إلى السلم الذي سوف تصعده لتصل إلى بيتها ، و سألها نفس السؤال عن موعد محاضراتها في الصباح .

في أول الأمر شكرته ، و حينما الح عليها ،

في الصباح وجدته أمام السلم في انتظارها ليوصلها إلى الجامعة

أصبح أنور صديقها المقرب ، رغم أنه يكبرها بضعف عمرها ، و إن كان لا يبدو عليه ذلك ، أعطته كل مواعيدها ، كل تحركاتها سواء إلى الجامعة ، أو إلى أي مكان تذهب إليه ، و كأنه أصبح صديقها في بجاية الأمر .

استطاعت بذلك أن توفر ثمن المواصلات على والدها ، بل على نفسها من زحمتها ، و بعض الاحتكاكات التي كانت تتعرض لها .. و شرحت لوالدها تلك العلاقة البريئة بينها و بين أنور ، و دعت له أمها بطول العمر و الرزق الوفير .

و ها هو يقدم لها الجميل التالي بعد أن عرف حالتها ، و حالة أبيها المادية ، و أخذ يشتري لها الكتب و المذكرات و المراجع والكراسات و الأقلام حتى لا تشعر أنها أقل من زميلاتها .

قال لها ذات مرة :

ستكذبين على والدك ووالدتك ، و تقولين إنك أخذت منحة التفوق ، و إنك سوف تشترين بها بعض الملابس .

قالت له و هي تنظر إليه بشغف :

و لكني لم اعتد أن اخفي عنهما أي شيء ، مهما كان صغيرا ، و هما يعرفان مدى علاقتي بك

في الاجازة الصيغية كان يصطحبها إلى بعض الأماكن السياحية هي و أختها الصغرى ليستمتعوا بحياتهم .

أحست بشعور غريب ، أنها تحب هذا الانسان الذي احتواها بكرمه ، فأصبح هو كل حياتها ، بل أصبح هو مستقبلها ، و تتمنى أن تصبح هي في حياته ، طالبته أن يتقدم إلى أهلها خاطبا

قال له :

أولا يجب انهاء دراستك ، و بعد ذلك سوف نتحدث في ذلك الموضوع .

و تغير الحال أصبح يرسل السائق كل يوم بحجة أنه مسافر في أعماله الخاصة ، و أنه قد يغيب فترة طويلة .

مضت السنة الأخيرة من الجامعة ، و أخير قد نجحت ، و سعى هو إلا تعينها عند صديق له .

قالت للسائق :

أريد أن أقابل السيد أنور .

قال لها السائق :

سوف اتصل به و أقول له .

و بالفعل جاء وهو يبتسم ، قالت له :

لماذا هربت مني ، هل بسبب مطالبتي لك بالزواج ، أنسى لن أتزوج منك ، و لا من غيرك ، يكفي أن أراك .

شعور غريب أنتابه ، و لكنه تمالك نفسه وهو يقول لها :

أنا متزوج ، و عندي بنات في عمرك .

أصيبت بانهيار عصبي ، و غابت عن الوعي ، و لكنه اسرع بحملها إلى المشفى ليعالجها إلى أن عادت إلى حالتها الطبيعية .

قال لها حين أفاقت ، ماذا لو اعتبرت نفسك بنت من بناتي الثلاث ، سوف أعرفك عليهن ، و سوف تعيشين حياتك التي حرمت منها سنوات طوال .

دولت

عرفتها منذ صغري فهى التي ولدت أطفال العيلة من الجيل الثاني ، خمس صبيان و بنت لأخي ، و بنتان و وولد لأختي .

كنت أنا المتعهد باستدعائها في أي وقت صابحا أو مساءا حسب الظروف ، لا يهم .

كانت تسكن خلف مدرستي الابتدائية بشارعين ، و أنا أعرف مداخل ، و مخارج هذه المنطقة جيدا ، كنا نهرب للعب في حواريها بعيدا عن الشوارع الرئيسية ، و بعيدا عن المحلات .

و دولت كانت شابة متوسطة الجمال ، وجسمها الملفوف يشي [انوثتها فينظر إليها الجميع ،

كنت أقف أسفل بيتها و أناديها باسمها مجردا ، رغم أنها نبهت علي أكثر من مرة أن أناديها بأم الخير ، و لكن أعرف جيدا أنه لم يكن عندها ولد بهذا الاسم ، بل و لا بنت ، و لم أر في حياتها زوجها ، كانت أرى فقط أمها التي كانت تأتي معها لتساعدها .

و كانت تعليمات أمي تعليمات صارمة أن أصحبها في يدي ، و لا أتركها إلا و أن تأتي معه ، و هي كانت تعرف تلك التعليمات ، فكانت تقولي لي :

انتظر سوف ألبس الملاءة ، و أحضر معك .

و تنزل و في صحبتها أمها التي سوف تساعدها في توليد زوجة أخي أو أختي ، لتأخذ البقشيش ، و ثمن الولادة .

و قد عرفت فيما بعد أن دولت كانت ممرضة في مستشفى القصر العيني ، و إنها رفدت لأن كل امرأة تولدها كانت إما تموت ، و إنما يموت جنينها .

و رغم ذلك فأنا لمن ألحظ خلال ولادة أي من الجيل الثاني ، أو أبناء الحي أن أحد منهم قد مات بل كلهم كانوا يولدون في منتهى الصحة و كاملي النمو .

و لم تكن تدقق فيما تأخذ من ثمن الولادة ، فما يأتي منكم خير و بركة ، و لكن أكرموا أمي ، و إلا انطلق لسانها من معقله ، و كنا نخاف من هذه الجملة الأخيرة ، فمعقله هو سببه ، أو الدعاء البذيء ، و هو ما كنا نخشاه .

كان أبي يقدم لها مساعدة شهرية ، هو و آخرون .

و ذات مرة و أُثناء لعبنا في الحارة ، سمعنا صراخ من منزل دولت ، لقد ماتت أمها ، و هرولنا جميعا نخبر أهلنا ، فأسرع الرجال و النساء للوقوف مع دولت في مصابهم ، كما وقفت في أفرحهم .

و تحت احترام الجيران كما قال أهلنا ، فقد قررنا ألا نلعب في الحارة ، و نهجر تلك الحارة رعاية لمشاعرها.

و مضى الأربعين كما هي عاداتنا ، و ذهبت نساء الحي للوقوف مع دولت ، و لكنهم لم يجدوها ، ووجدوا البيت مغلق ، و عليه قفل كبير ، و تساءل الجميع أين ذهبت دولت .

من قال إنها ذهبت إلى قريتها ، من قال إنها اعتزلت و تركت الحي، و لا قول محدد .

باقة ورد

ركن سيارته في ساحة الانتظار خلف دار المناسبات ، و ترجل من السيارة، فوجد سائس الموقف يسأله :

هل ستتأخر ؟

اجابه باقتضاب :

لا أعرب ، سأقرأ سورة الفاتحة على قبر ابي .

و تركه و انصرف .

وقف لحظة في أول الطريق الصاعد إلى جبانة الغفير ، و نظر إلى يمينه فوقع بصره على اليافطة الزرقاء التي تحمل اسم الشارع ، شارع سليم عبده " ثم التفت فألقى نظرة أخيرة على شارع العباسية الصاخب بالسيارات و زمامیرها المستمر المزعج ، و في الميدان الصغير المزدحم بعربات الترام و التروللي باس و الناس ، ثم خلف العمران وراء مضى على مهل في الشارع الهادئ الطويل .

عن يمينه منازل هادئة من طابق أو طابقين قد علاها الغبار ، فنسيت لونها الأصلي ، أمامها أشجار ضحمة تساقطت أوراقها ، و تكومت الأوراق بجوار الرصيف ، و عن يساره مدرسة العباسية الثانوية ، و مسجد مغلق الأبواب ، إلى جانبه أرض مهجورة عليها أكوام من التراب و الحجارة تركها عامل النظافة لتبني لنفسها تل صغير .

و انحنى مع الطريق قليلا ، فرأى أرضا واسعة جرداء تناثرت فيها الأشواك ، و من بعيد وراء هذا الفراغ ، بدأت ثلاث عمارات بيضاء عالية ، كأنها آخر أثر للأحياء .

و أمامه على مدى البصر ، انتصبت أشجار الكافور الضخمة متحدية الزمن ، و تراءت له من خلفها تلال المقطم العالية ، تدور حول المدينة ، و أشعة الشمس الغاربة تعكس على قمم الأشجار العالية ، و البيوت في الجبانة البعيدة ، و الطريق خال إلا من بعيد كطيف في حلم .

أنه يعرف معالم هذا الطريق جيدا ، يعرف كل بيت ، و كل شجرة فيه ، فطالما ساق فيه من قبل ، وانطبعت كل دقائقه في ذاكرته .

كل ما حوله فراغ ، و جفاف ، الأرض مجدلة كلها أكواما من التراب و الحجارة ، و الأشواك ، و الشمس تلقي أشعتها الباهتة المكدودة على المرئيات ، فتحرك في القلب احساسا عميقا بالحزن .

كم يشبه هذا الفراغ ، و هذا الجفاف خياله ؟ خياله الذي ودعه حين ودع فلذة كبده ، ثم حين تركته أليفته ، ليكون وحيدا فيما تبقى له من زمن .

كان من عادته كل عيد ، عصر يوم الوقفة أن يذهب إلى مقابر الغفير ليروي قبر ابنه الصعير و قبر زوجته ، فقد دفن هناك في القبر البعيد سعادة العمر ، أغلى ما لديه ، و أعز ما عنده ، أودع أيام شبابه، و حبه ، و لم يعد له شيء بعد في هذه الدنيا .. أصبح وحيدا

و لقد سار في هذا الطريق من قبل مع زوجته ، ثم سار وحيدا مع ذكرياته .

و بدأت ذكريات الماضي تزدحم عليه ، فحاول أن يطردها بعيدا ، و شل ذهنه بالتفكير في أشياء أخرى ، لكن تلك الذكريات أخذت تطارده بإلحاح .

عادت تلك السنوات الماضية بكل مرارتها ، و بدت له أشد مرارة مما كانت عليه ، عندما كان يعيشها، ثم ضاعت تلك السنوات من عمره ، و لم تترك له إلا ذكريات أليمة تشع في صدره تعاسة و حزنا ، و كان ينسى هذه الذكريات أحيانا ، في دوامة الحياة ، ثم تعود بكل قوتها و عنفها فتطارده من جديد ، و تضغط على صدره .

و أحس وهو ينقل خطواته البطيئة المتثاقلة على الطريق الطويل أنه انسان قست عليه الأيام ، و أن السنين قد تقدمت به كثيرا , إنسان إذا جاز أن يطلق عليه إنسان ، كل ما بقى في حياته أنفاس خارجة ، و انفاس داخلة ، ليس من صفات البشرية إلى هذا الجسد الهرم .

لم يعد يعرف ماذا يريد تماما ، هل تنقصه المرأة ؟ و لذلك فهو ينظر إلى الحياة هذه النظرة القاتمة ، و لن هل تستطيع امرأة أخرى أن تشغل مكانها ؟ لقد أغلق قلبه في وجه النساء جميعا منذ افترقا ، و لم يعد يحس بأي عاطفة نحو المرأة ، مهما كان جمالها ، مهما كانت أنوثتها ، مهما كان الحنين يداعب أحلامه .

و ألقى نظرة على ما حوله ، فإذا كل ما حوله فراغ ، المكان مقفر موحش ، و السكون شامل عميق لا يقطعه إلا وقع أقدامه .

كان يظن أن صورتها لن تلبث أن تتلاشى من مخيلته ، وإنه سرعان ما سينسى ابتسامتها الحلوة التي كانت تسره ، ولكن مرت به الآن ثلاثة أعوام ، ثلاثة أعوام طويلة منذ افترقا ، و ما برح صورتها واضحة في مخيلته ، و كانه لم يفترق عنها إلا بالأمس.

لا ، إن أبسط شيء يمر به كان يحرك النار في الرماد ، حديث عابر من الماضي صورة متروكة في درج مكتبه ، كلمات أغنية تأتي من بعيد في سكون المساء ، حتى تتحرك فجأة كل ذكرياته معها ، لقاؤه معها ، امسيات الصيف الرائعة على النيل ، أحاديثهما العذبة ، ثم أيام الخطوبة الجميلة و أيام الزواج ، الأيام الأولى اللاهية ، أياما أحلى أن يستعيد المرء ذكرياته السعيدة ، و ما أجمل و أعذب أن يعيش فيها .

تلك الليالي الطويلة الحافلة بالسعادة ، إن كل شيء يبدو واضحا في مخيلته ، كأنه حدث بالأمس القريب ، حدث و لا يريد أن يترك ذكرياته في اللاوعي .

كان يحبها أعمق الحب ، و كان زواجهما سعيدا موفقا ، و رزقا طفلا جميلا ، و لكن الموت عاجله و هو في الثالثة من عمره ، ثم خيمت على البيت الصغير سحابة قاتمة من سحابات الشتاء ، امطرت كآبة ، امطرت حزن دفين ، لقد أخبره الأطباء أثناء الولادة أن الحمل خطر عليها .

شعرت بالمرارة ، و قد سمعت كلام الطبيب ، ‘نها كالبيت الوقف الخالي من السكان .

كان هذا الطفل محور سعادتهما ، يشع وجوده الدفء و الحنان في البيت ، فلما ذهب أصبحت حياتهما موحشة باردة .

و مرت الأيام ، و ساد البيت توتر غامض لا يدري أحد كنهه ، و استحال جوه المنعش إلى جو خانق ، أ كانت مرهفة الأعصاب نتيجة فقدانها طفلها الحبيب ، ؟ أ كان متعبا حزينا فقد زمام نفسه ؟

لم يكن هناك سببا ما ، و جرافتهما دوامة من التنافر و الشقاق ، و أصبحت الهوة بينهما ، لكنهما كانا يتجهان معا ، كل بضعة أيام إلى هذا الطريق ، ليزورا قبر الصغير الحبيب ، و يضعا عليه باقة من الزهر ثم يعودا صامتين .

و ذات يوم تفاقم الخلاف ، وصارحته على إنها لم تعد تقوى على أن تعيش معه ، و جابهها بأنه سئم عشرتها ، فحملت ثيابها و غادرت البيت .

و بدت له و هي تغادر البيت كأنها حطام شيء عزيز حبيب كان يعتز به يوما ما ، ثم انقطع الخيط الذي كان يربطه بها .

و في هدوء تم الانفصال ، و بعد الفراق ندم على ما حدث ، ووجد نفسه يلتمس لها العذر ، لكنه طوى نفسه على جراحه ، و دار مع الحياة التي لا تتوقف أبدا مهما حاول .

ثم عرف بعد شهور إنها تزوجت، أحس بجراحه تدمي ، و سأل نفسه في تعاسة و حيرة : كيف حدث هذا ؟ كيف أقدمت على هذه الخطوة ؟ و هل نسيت ما كان بينهما ؟ هل نسيت ذكريات الماضي ، أيام الحب و الخطوبة و الزواج ؟ هل نسيت قبر الصغير الحبيب ؟

لا أظن أنها نسيت ، بل لعلها تناست ، أو دفنت ذكرياتها ، لكنه لم ينس شيئا ، لم ينس ذكرياته معها ، و لم ينس القبر الذي يربطه بالماضي ، فكان لا ينقطع هم زيارته .

كان يسير وثيا في طرقات الجبانة يحس بالضياع و الوحدة ، و مر بمسكن التربي ، فطرق بابه ، و طلب إليه أن يفتح له باب الحوش ، ، و جاء الرجل بالمفاتيح ، و سبقه إلى المدفن ، و فتح له الباب ، فخطا إلى الداخل ، و تركه الرجل و مضى .

و ظهر صورة الصغير ، ولده الحبيب ،وهو يلهو في البيت ، و يقفز على حجره ، و يعبث بكل شيء ، و تراءت أمام عينيه صورة البيت السعيد قبل أن تمتد إليه يد الموت ، ، فتصور الزهرة النادرة و تحطم السعادة ، و فناء كل شيء .فناء عمره هو .

و كادت دموعه تطفر من عينيه ، لكنه تماسك ، و التفت كمن يبحث عن عون ، فوقع بصره على شيخ عجوز يقف بالباب و يقول له : " أقرأ سورة يا بيه " فدعاه للدخول .

و تربع الشيخ ، و انطلق يتلو القرآن ،وأقبل التربي يحمل قربة ماء ، و أخذ يرشها على الرمال .

وجلس ووجه إلى القبر و تاه في خواطره ، ثم انصرف الشيخ و التربي ، بعد أن تناولا إكراميتهم و تركاه وحيدا .

في هذا القبر دفن سعادة العمر ، أغلى ما لديه و أعز ما عنده ، أودع أيام شبابه و حبه ، و لم يعد له شيء بعد .

و الأرض الرملية الظامئة من حوله امتصت الماء الذي رشه التربي ، و سرعان ما جفت ، خيل له أن ذرات الرمل تكاد تصرخ من الظمأ مطالبة بالمزيد من الماء ، كم شبه حياته هذه الأرض الرملية الجافة ، انه يحس بالظمأ ، الظمأ القاتل إلى الحياة ، و على الحب ، وإلى المرأة .

و لكن هل تستطيع امرأة أخرى أن تشغل مكانها ؟

يجب أن يروض نفسه على الواقع ،لقد أصبحت زوجة لرجل آخر ، و انتهى كل شيء ، و لم يعد يعرف عنها شيئا ، و لعلها الان تمنح ذلك الرجل رحيق السعادة التي منحته له في أيامها السعيدة الأولى .

و طالما سأله نفسه ، أكثر من الف مرة ، طيلة السنوات الماضية ، ؟ لماذا لم يتزوج ، و مثله من ترغب فيه النساء ، و لكنه لم يصل إلى جواب .

كان قد أوصد قلبه و روحه في وجه النساء ، ولم يعد يحيى بأية عاطفة نحو المرأة ، و أحيانا كان يتصور إنه لن يجد المرأة التي تشغل مكانها ، و كان يخاف أن يبدأ الدورة من جديد و يفشل .

أن يمر بذكريات كالذكريات التي مر بها في حياته ، و لما التجربة .

و بدا له أن كل شيء قد انتهى ، و لم يعد يصلح للحب او الزواج ، و لم يتبق له إلا هذا القبر الذي يضم عظام الصغير العزيز ، و الذي دفن فيه معه كل سعادة العمر .

و سمع صوت خطوات خفيفة تأتي من خلفه ، فلم يتحرك ، ظنه التربي ، لكنه رأى يدا تمتد فتضع على القبر باقة زهر .

و التفت فرأها ، كانت واقفة قيد خطوة منه ، شاحبة هزيلة ، ترتدي فستانا أسود ، و تحيط بوجهها طرحة سوداء شفافة ، و مدت إليه يدها.

و تناول يدها ، و هو يحملق مشدوها في وجهها الممتقع ، و في عينيها الذابلتين حيث تحجرت قطرات من الدمع ، إنها مثله لم تنسى صغيرها ، فلذة كبدها ، جزء من كيانها ..

سألها : كيف حالك ؟

قالت و الحزن يجسد كلماتها :

الحمد لله ، و أنت

أشكرك ، إن صحتي لا باس بها ، أرجو أن تكون أحوالك على ما يرام .

فأمسكت برأسها و لم تجب ، ومرت لحظات من الصمت الثقيل ، و قالت في اقتضاب :

مات زوجي من شهور ، و أنا الآن أعيش وحيدة .

و اختلج جفناه ، وجف ريقه ، و عاد الصمت الثقيل ، و أخذ يختلس إليها النظر بشوق ، و يفحصها من قمة راسها إلى حذائها الأسود الذي علاه التراب ، و كانت الشمس قد سحبت خيوطها الذهبية عن قمم أشجار الكافور العالية و تركت خلفها لون أحمر قاتم ، و عن تلال المقطم البعيدة

التي بدأت هي الأخرى تحتفي في ظلام الكون الدامس ، و أمسى الجو رماديا حزينا ، و كأن الكون يشاركه أحزانه و أحزانها .

و كان كل شيء فيها يفجر في صدره مشاعر مبهمة ، و كان يريد أن يتحدث إليها ، و أن يقول لها أشياء كثيرة ، عن ماضيها معه ، و عن حياته بعيدا عنها ، و لكنه وجد نفسه عاجزا عن أن ينطق بكلمة .

و من سمات وجهها المتعب ، و من التجاعيد الواضحة في عينيها و حول الفم ، أدرك أن حياتها و هي بعيدة عنه لم تكن سعيدة قط ، و أن الأيام قد أضافت إلى عمرها كثيرا من التجارب المؤلمة .

لم يجرؤ واحدا على أن يشير إلى اي بكلمة ، لكن نظرات عيونهما توشي بها و حديثهما المضطرب ، و لحظات الصمت الحافلة بالمعاني ، كان يجذبهما بعنف إلى نطاقه، فيعيشان في ذكرياتهما معا .

و عادا في الشارع الهادئ الطويل المقفر ، و خلفا وراءهما الجبانة الموحشة تودعهما الممتلئة برفات الأجداد ، و الأرض المهجورة ، و أكوام التراب و الحجارة في كل مكان ، و من بعيد بدت لهما أضواء المصابيح في شارع العباسية ، و السيارات و الترولي باس و الناس ، الحياة مرة أخري.

نعم الحياة التي تنتظرهما بفارغ الصبر ، و قد عاد إليهما رشدهما ، عاد إليهما عقلهما ، عاد إليهما حبها من زاوية النسيان .

خطت معه خطواته ، و عبرا النفق ليصلا إلى الساحة .

قال لها :

إلى أين ستذهبين ؟

قالت بصوتها الناعم :

إلى بيتي ، البيت الذي تركه زوجي لي .

إجازة زوجية

مضت عشر سنوات تقريبا على زواجهما ، و لم ينجبا ، و رغم ذلك فطائر الجب ، طائر السعادة ، طائر الهناء يرفرفون على عشهما ، و كان أقرب الناس ممن حولهما يحسدونهما على سعادتهم .

ذات يوم ، و بعد تناول طعام الغداء ، و احتساء القهوة في العصرية ، قالت له بجدية واضحة على ملامحها :

طلقني

كلمة واحدة ، جعلته ينظر إليها بتمعن و اندهاش ، و يراجع نفسه ، هل حدث شيء جعلها تطلب هذا الطلب ، فمنذ شهر تقريبا لم يزورا أي أحد ، و لم يزورهما أحد ، أمه و أمها .

و نادرا ما كانت تصدر منهما غيرة منغصة ، و إن حدث من أمه شيء فيسارع إلى تطيب خاطرها ، و يطبع قبلة على جبينها ، و إن حدث من أمها شيء في أيضا تسارع إلى تطيب خاطره ، و تطبع قبلة على جبينه . و كأن شيء لم يحدث ممن حولهما .

و استدرك ، و قال لها :

ماذا ؟

قالت بنفس النبرة :

طلقني !

قال لها و هو ينظر إليها بحنية :

لماذا ؟

أشعر بملل يجتاح كياني ، لقد ذهبنا إلى أكثر من طبيب لعلاج حالة عدم الانجاب ، و لا فائدة ، لعلك تجد زوجة أخرى تستطيع أن تعطيك الطفل الذي تتمناه ، و لا تبوح به أمامي .

قال لها بجدية تشبه جديتها :

أنا لا أفكر في طفل أو الزواج من امرأة أخرى ، أنا لا أفكر إلا فيك أنت ، فأنت حياتي ، و لا أستطيع أن أعيش بدونك .

قالت له :

و لكني ..

قاطعها بشدة :

انزعي هذا الخاطر ، هذا السواس من خيالك ، دعينا نعيش حياتنا السعيدة كما كنا .

صمت برهة ، ثم استمر في كلامه :

ما رأيك في أن نأخذ إجازة زوجية ، نعيش بعيدا عن بعض حتى يتجدد الحب بيننا .

قالت له :

و كيف ذلك ؟

قال بمرح هذه المرة :

لنذهب إلى أي قرية سياحية ، و نحجز حجرتين لنكون بعيدان عن بعض من ناحية ، و نستطيع أن نجدد نشاطنا و حيويتنا ، و حبنا مرة أخرى .

******

انطلق إلى القرية ، و عاش أسبوعا ، شعرا أنهما قد جددا نشاطهما ، و إنها في اشتياق لبعضهما .

قال لها بمرحه المعتاد :

هل نفسيتك ارتاحت ، سنعود غدا ، و عندي لك مفاجأة . سأوصلك إلى بيت أهلك ، و أذهب إلى بينت أهلي ، و سوف أحضر لأخذك في الغد .

في اليوم التالي بعد أ، استيقظ من النوم و تناول طعام الإفطار مع أمه ، و داعبها كما كان يفعل دائما .

أرادت أمه أن تسأله و لكنه غير الموضوع ، و طالب منها أن تعد نفسها للذهب معه لكي يخطب .

رغم الاستغراب الذي ظهر على وجهها ، إلا إنها لم تنبس ببنت شفة ، فهي تعرف طبعه ، و إنه لن يترك لها المجال للسؤال .

في الناحية الأخرى قامت من نومها في منتهى النشاط ، و تناولت الفطور مع أمها و أختها الصغرى ، و بدأت في توضيب الشقة ، بل و عمل بعض الحلويات ، نظرت إليها أمه ، و لكنها أيضا لم تحدثها ، في سبب ترك بيتها ، في سبب هذا النشاط الذي حرمت منه طويلا .

دق جرس الباب ، فأسرعت أختها بفتح الباب ، و تسمرت حين وجدت زوج أختها و معه أمه ، و لم تنطق بحرف على السؤال الذي وجه إليه :

من ؟

طبع قبلة على وجنتيها و أبعدها قليلا عن الباب ، و دخل هو أمه ،و تركها أمام الباب حتى تفيق من الصدمة .

جلسوا يتناولون ما أعد من حلويات ، بل و ما جاء به زوجها من فواكه ، و شربوا الشاي .

فال و هو يداري وجه :

أعرف أنكم تتسألون عن سبب مجيئنا ، باختصار ودون لف ودوران ، لقد جئت و أمي نطلب يد كرمتكم .

أصاب الدهشة وجه أمه و امها ، حتى أختها .

قالت أمها و الدهشة ما زالت تعلو وجهها :

و لكنكما متزوجان ، منذ عشر سنوات ، هل طلقت ابنتي .

قال لها بمرح :

أظن أنه لا مانع لديك في خطبة كريمتكم لي ، وسوف أترك لكم فرصة لتسألوا عني .

و ضحكت أمه و ضحكت أمها ،و ضحكت أختها ، و لمحوا ابنتهم و قد أحمر خدها ، و كأنه أول مرة .

قالت أمها تداعبه :

أظن سوف تحضر شبكة ، و تقدم مهر من جديد .

قال لها بمرح :

أنا أحضرت الشبكة ، و سوف أسمع مقدار المهر منك .

قالت :

في فتة الخطوبة لن تنزل ابنتي معك ، و لن تخرجا بمفردكم.

سكتت بعض الشيء ثم قالت :

و هل تكتب الكتاب من جديد .

******

انتقلا مرة أخرى إلى شقتهما و كأنهما عروسان جديدا ، هي بثوب أبيض ، و هو ببدلة سوداء ، .

قال لها بحنان :

أنا مشتاق إليك .

ووضعت وجهها في الأرض ، و قد أحمر خجلا و قالت :

و أنا كمان .

و عاد طائر الحب ، و طائر السعادة ، و طائر الهناء يرفرفون علي عشهما ، لم يمض غير أشهر قليلة حتى أعلنت له أنها حامل .

كان الاعلان بمثابة أمل جديد في الحياة ، و طلب منها أن ترتاح ، بل أخبر أمها و أمه أن يأتيا لرعاية زوجته ، و انطلقت الزغاريد

راوية

هي (رواية) بياضها البياض الأوربي المشرب بحمرة ، متوسطة القامة ، لا تميل إلى النحافة و لا إلى السمنة ، أي ملفوفة القوام في اعتدال ، شعرها الطبيعي ذهبي اللون عينها ذات لون رمادي ، أنف به طول قليلا ، أذنها تكاد تلتصق بوجهها ، و جنتها كتفاح قليل الحمرة ، شفتاها دقيقتان .

هو (عبد الله) شديد السمار الأفريقي المصري ، طويل القامة يفترق عنها بقليل ، ، يتمتع بجسد قوي ، شعره أكرت مجعد ، عيناه سوداوان ، جبهته عريضة بعض الشيء ، .

هي طالبة السنة الرابعة بكلية طب جامعة الأزهر ، هو قد حصل على دبلوم التجارة المتوسط ، و اشتغل به في مصر فترة في أحد البنوك ، ثم قرر أن يهاجر بعد أن تلقى دعوة من صديقه حست ، كما كانت الموضة في تلك الأيام ، الهجرة بعيدا عن الفقر ، و الدخل الضعيف .

عندما عاد من سفره في إجازة ، كان أخوه الأصغر آخر العنقود قد خطب جارته (أم كلثوم) الطالبة في كلية الطب جامعة الأزهر ، زميلة راوية ، و هو (بيومي) كان طالب في كلية التجارة جامعة الأزهر في السنة النهائية ، كان في ذلك الوقت ضابط في الجيش.

قرر الأخ الأكبر (عبد الله) أن يجمع أخيه و خطيبته في سهرة ، و انضمت إليهم (راوية) بناء على رغبة (أم كلثوم) .

كانت السهرة في كازينو على شاطي النيل في أول كورنيش المعادي ، القريب من سكن الجميع .

امتدت السهرة إلى قبيل الفجر ، بين أحاديث الود و الغرام ، و بين الاستماع إلى غناء بعض المطربين و المونولوجست ، و رفص الراقصات ، و العشاء .

ماذا حدث ؟

استطاع (عبد الله) أن يجذب بحديثه اللبق أنظار (راوية) و تبادله الحديث ، بحيث أصبحا صديقين ، بل قل حبيبين من أول لقاء

ورفعت الكلفة بينهما فبدلا من كلمة أستاذ عبدالله ، و آنسة راوية ، أصبح الحديث بعيد الله و راوية دون ألقاب .

أسبوع واحد كانت إجازته ، أستطاع خلالها أن يتفرد براوية و حيدين في خروجهما ، و يدور بها بين الحدائق و المطاعم الفاخرة ، يبثها لواعج العشق ، و تبادله الغرام بكلمات قليلة كطبيعة الفتاة المصرية .

ثم غادر على أن يعود في أقرب فرصة ، ليتقدم لخطبتها رسميا من أهلها ، غادر على اللقاء مرة أخرى .

و لكن الزمن و القدر كانا لهما بالمرصاد ، كانا لهما وجهة نظر أخرى ، هي خطبت إلى أن عمها حسب التقاليد البالية في مجتمعنا رغم خطورة زواج الأُقارب كما تعلم هي .

صحيح ان أبوها من الأرياف ، و انتقل إلى القاهرة ، و لكنه لم ينس عادات و تقاليد و ارتباطات القرية .

و عندما عاد بعد شهر تقريبا ، و عرف الحقيقة المرة ، لم يصدم ، و لم تأثر نفسيته ، و اسرع إلى خطبة ابنة بنت عمته الصغيرة ، بل وتزوجها في خلال الأسبوع ، على أمل أن يسحبها إلى غربته الأبدية .

أسبوع واحد فقط هو عمر زواجه ، و سافر إلى غريته ، و لم يمض هناك إلا ايام قلائل حتى توفي .

قال أحد أصدقائه أنه كان كئيب على غير العادة ، أنه كان يتنول الخمر مع أصدقائه من بلدة الغربة .

و أنجبت زوجته طفلة ، عاشت أمها من أجلها رغم أنه قد تقدم الكثير من شباب العائلة .

******

ما إن انتهت من دراستها و تخرجت ، و استلمت وظيفتها في أحد المشافي ، حتى أعلنت للجميع أنها تريد أن تفسخ خطبتها ، أن تعود حرة كما كانت ، أن تستقبل حبها الذي مات .

في اليوم التالي ذهبت إلى المقابر ، ووضعت على قبره باقة ورد تختلف عن الخواص الذي نضعه على المقابر ، و جعلت شيخا بعد شيخ يقرأ ما تيسر له من آي القرآن .

كالنت ذكرياتها الأليمة تعشش داخلها و تظن أنها السبب في وفاته ، قالت بكل صراحة لأهلها بعد أن انفصلت عنهم

انا لن أتزوج أبدا سأعيش من أجل عملي ، سأعيش من أجل ذكرى حبيبي ، و افعلوا ما شئتم .

فؤاده

فؤاده اسمها ، و لكن ينادونها كوثر ، و كلا الاسمين لهما معنى جميل ، فالاسم يدل على القلب ، و الثاني يدل على الجنة .

تقدم لخطبتها رضوان ، فوافقت أمها الحاجة وهيبة ، فقد كانت تعلم أن هناك علاقة شريفة بين الاثنين ، و لم يعط أبوها أنور رأيا قاطعا ، فهو قد ترك كل الأمور لزوجته ذات الشخصية القوية . ، أما مجدي أخوها الكبير فقد وافق على الخطيب المشهور في الحي بحسن أخلاقه ، أما أخوها المتوسط علي فلم يوافق على هذه الخطبة للعداء بينهما ، أم

الصغير أنس الذي لم يتجاوز الخامسة فكاد يطير من الفرح ، لأنه رضوان كان يعطيه كل يوم بعض الحلويات .

و السؤال المحير :

لماذا هذا التباين في الآراء ؟

أما الحاجة وهيبة فكانت الصديقة المقربة لأبيه ، و كاتمة أسراره ، بل بنك مكاسبه التي يودعها عندها ، أو يسحبها منها .

أما أبوها أنور فكان يكره أباه كراهية شديدة ، لهذه العلاقة بينه و بين زوجته ، ولكنه أبدا لا يشك في زوجته ، كراهية لا حدود لها ، فهو يراها في الصباح تقف أمامه قبل أن تذهب إلى السوق ، أو محل الجزارة التي كانت تملكه مع أخوها .

أما أخوها مجدي فكان صديق مقرب من رضوان ، يجلسان أمام محل رضوان يسامران، وهو يجلد كتبه الجامعية مجانا ، بل أنه سعى إلى جعله محامي تحت التمرين قبل التحرج ، و هما في نفس السن تقريبا ، و كان يعلم بعلاقة أخته برضوان ، يعلم إنها شريفة ، لا يلتقيان إلا لهدف ، فهو يوصلها إلى المعهد صباحا، و هو يأتي بها من المهد حينما تطلبه ، و يسيرا جنبا إلى جنب بدون تشابك الأيدي ، فباركها .

أما علي فقد كانت كراهيته راجعة إلى علاقة رضوان السابقة بفتاة في منزل الأخير ، علاقة تكاد تكون غير شريفة ، و عندما استطاع علي أن يتقرب من الفتاة ، ويبعدها عن رضوان ، أصبحت العلاقة بينهما علاقة عداء ، و ظن أنه يريد خطبة أخته حتى ينتقم منه .

صممت الحاجة وهيبة ان تكون الشبكة و كتب الكتاب في يوم واحد ، حتى يستطيع أن يدخل و يخرج مع خطيبته بعد موافقتها .

و تم حجز مكان الحفل في جمعية المعلمين بالجزيرة ، حضره الجميع ألا علي ، بل حضره زملاء رضوان في الريف الذي يعمل فيه .

و قدمت الحاجة وهيبة ما يليق بأسرتها ؛ اسرة السمين المشهورة ، و أسرة الحاج حمدان ، بوفيه مفتوح فيه ما لذ و طاب من أصناف الطعام الشهية ، و في نهاية الحفل هناك علبة فيها بعض الحلويات .

كانت فكرة خروج الخطيبان محدودة ، فهو يعمل في الأرياف ، و هي طالبة في معهد الخدمة الاجتماعية .

و اللقاء مرة واحدة في الشهر حين يهبط إلى القاهرة يجلس في بيت خطيبته ليتناول الغداء ، ثم الخروج معها للذهاب إلى السينما أو المسرح ، و لقد شاهدا فيلم صغيرة على الحب ، و مسرحية " ريا وسكينة " .

و ذات مرة أخذها إلى كازينو " النيل جاردن " في أول طريق كورنيش المعادي ، سهرا إلى الفجر في سعادة ، و عندما عادا معها ، قالت لهما أمها :

أذهبا حيث كنتما .

قال في سذاجة :

نحن كنا في كازينو .

ضحكت الحاج وهيبة ، و أدخلت الاثنين ، ولكنه استأذن للعودة إلى بيته .

و في يوم آخر كان مريضا ، فذهبت إلى زيارته في بيته ، فأحس بسعادة غامرة ، فلم يكن هناك أحد ، لا رقيب ، و كانت أول قبلة طبعتها على خده ، قبلة صغيرة دافئة ، و استغل هو الفرصة فطبع قبلة على شفتيها قبلة ممتدة ، أحس بأنها تترنح بين يديه فضمها إلى صدرها ، فشعر بحرارة جسدها تلهب صدره .

عناق طويل مع تلاصق الجسدان، و قبل سريعة متتالية ، أحس بأن جسدها يرتعش من شعورة باللذة الطافية التي تمتلكها ، فاسبلت عينها ، فأطلقها و أن كان ظل ممسكا بيديها ، و مسندا جسمها المتهاوي ، و كأنه أحس بشهوتها .

قبلها مرة أخرى ، و لمح في عينيها السعادة ، كل السعادة ، و كان يمكن أن يتجاوز الحدود ، فهى مستسلمة له ، في دنيا أحلامها الوردية ، ولكنه لم يفعل حفاظا عليها ، و حفاظا على الوعد الذي قطعه لأمها بألا يفض بكارتها إلا في ليلة الدخلة .

و ذات مرة سافرت إليه لتبلغه أن أباه مريض ، لمحها عضو الاتحاد الاشتراكي أبو شنب ، وسألها عن هدفها ، فالقرية صغيرة يعرف الغريب فيها من أول خطوة يخطوها في القرية ، فقالت له إنها جاءت لزيارة خطيبها . كانت ترتدي بنطال أحمر ، و بلوزة بيضاء ، و طاقية سوداء ، وشنطة سوداء ..

استدعى ابو شنب رضوان إلى بيته ، و جعلهما يجلسان سويا ، إن كانت العيون تشرأب نحوهما .

كان موعد القطار يقترب ، فأستأذن من أبو شنب في أن يوصلها إلى القاهرة و يعود في اليوم التالي .

رحل و لم يعد مرة أخرى إلى القرية ، و أخذ يعمل في محل أبيه .

في يوم عيد الأم طلبت منه هدية لأمها ، و من الصدف العجيبة أنه كان لا يملك إلا ثلاثة جنيهات في ذلك اليوم .

نشبت بينهما مشاجرة في الشارع ، أمام المحل ، و طلبت الطلاق .

و لأول مرة أحس بأنه أهين ، هبط أخوها مجدي سريعا ، و لكنها كانت ثائرة ، فلم يستطع ايقاف ثورتها ، و اعتذر لرضوان الذي قال له :

إنها تريد الطلاق ، لنذهب إذا إلى المأذون ، فأنا لا أريد من تريدني ، و هكذا انتهت علاقتهما ، رغم أن علاقته بأمها مازالت قائمة .

مأساتها

لا أعرف بالضبط ، كيف تعرفت عليها ، رغم إنني أراها كل يوم ، بل كنت أركب معها المترو يوميا ، حسن تنزل في محطة السيدة زينب لتشتري أغراضها اللازمة للبيت .

ظننت في أول الأمر أنها وحيدة ، فلم أر معها أحد بعد أن فقدت ابنها في حرب التحرير عام 1973 ، و فقدت أختها .

كانت هي البادئة بالحديث معي ، حين ألتقت تحية الصباح علي و نحن على محطة المترو ، و ركبنا القطار ، و لم نتحدث خلال الرحلة

، و لكنها لم تنزل هذه المرة في محطة السيدة زينب ، بل استمرت و نزلت معي في محطة باب اللوق .

و سارت بجانبي ، لم نتجاذب أطراف الحديث كما كنت متوقعا ، و لكنها كانت تنظر إلي بطرف خفي ، و كأنها تريد ان تقول إنها تحبني .

أظن أنها قد تخطت الخمسين بعدة سنوات ، و لكن مازال جمالها لم يزبل ، و ما زال قوامها الملفوف الممشوق كما هو ، و زاد على ذلك أن ثوبها الأسود الضيق يظهر مفاتن جسدها ، أنوثتها الطاغية .

و افترقنا ، أنا إلى عملي ، و هي لشتري من سوق باب اللوق ما تريد لبيتها من لوازم .

و هكذا أصبح اللقاء يوميا ، و حينما كنت أعود في المساء كنت أرى أن دكانها ما زال مفتوحا ، محل البقالة ، و هي جالسة أمامه في انتظار أن يأتي زبون أو زبونة ليشتري منها ما يريد .

كانت سجائري قد نفذت ، فاضطررت أن أعرج عليها ، و اشتري منها علبه سجائر ، و بادلتني الحديث ، و قالت ل في شبه توسل إنها تريد أن تتحدث معي ، سأغلق المحل ، فهل تصعد معي ؟

بالطبع رفضت أن أصعد معها ، و لكنها أصرت أن تقابلني في أي مكان أريده ، لتتحدث إلي ، و بالطبع وافقت على هذا الاقتراح ، لأبعد الشبهة عني و عنها ، و خصوصا أنها وحيدة في شقتها .

قالت لي :

لا تخف فأنا أريد أن أتحدث مع أحد ، أن أبين لي ما حدث لي ، و لا تظن إنني حينما دعوتك إلى شقتي ، أريد أريد شيئا يغضب الله .

في كازينو النيل جلسنا ، كان شبه فارغا ، فالجو شتاء باردا ، و في تلك الليلة كانت أبرد ما يكون . و أحسست أنها ترتعش من البرد فنهضنا ، ورجعنا إلى بيتها مضطرين .

كالنت الساعة قد جاوزت التاسعة مساء ، و كنت أنظر إليها بدهشة و هي تتكلم ، قالت :

كنت صغيرة و كانت معي أختي ، رحمها الله ، و أبي ، و قد ماتت أمي فاضطررت أن أترك المدرسة، و أن أتفرغ للبيت ، رغم وجود خادمة تأتي مرتين في الأسبوع للغسيل ، و نظافة البيت .

كنت أعد الطعام لي و لأختي و لأبي ، ثم استريح بعض الوقت ، و أنزل لأقف مكان أختي في محل البقالة .

لم تمض فترة طويلة حين جاء أحد شباب الحي ، يريد أن يقابل والدي ، أن يتقدم لخطبة أختي ، و قلت له سوف أرد عليه .

فاتحتها في الأمر ، فلمحت السعادة في وجهها ، و قلت لها إنها مازالت طالبة ، و أمامها المشوار طويل .

قالت لي أنا اتفقت معه على أن تكمل دراستها ، و يكفيها الآن أن يخطبها حتى ينهيا تعليمهما .

و جاء الشاب بعد يوم واحد ليعرف الرد ، فأبلغته بأني موافقة ، بشرط أن يتم كل منكما دراسته ، وألا يصحبها إلى أي مكان ، يكفي أن

تتحدثا أثناء ذهابكما إلى المدرسة ،و حين رجوعكما منها . ووافق ، و حددت له موعد لتلبس لأختي الدبلة و الشبكة .

لم أكن أعلم أن أختي مريضة ، و إنها تعاني كما يبدو ربو على صدرها ، و حينما شعرت باشتداد نوبات السعال في الليل ، أخذتها و ذهبت إلى المستوصف ، و بعد الكشف عليها ، قال لي الطبيب ، إنها تعاني من ربو شديد ، و طلب بعض الأشعة .

كانت الأشعة مخيبة للآمال فقد قال لي الطبيب :

أنه سرطان ينتشر بسرعة في صدرها ،و ما هي إلا أيام قليلة ، و تموت .

لم أصدق الطبيب ، و ذهبت بالأشعة إلى دكتور في العيادة الخصوصية ، و أكد لي ما قاله الطبيب ،

ماذا أفعل ؟ أخبرت والدي ، و لكنه لم يبال ، ولم يحزن ، و لم يهتم ، بل تركني , و ذهب إلى غرفته ، و نام.

و اخيرا ماتت ، و أخيرا أصبحت وحيدة .

نظرت في الساعة فإذا هي الواحدة بعد منتصف الليل ، فاستأذنت في أن أتركها ، لنكمل حديثها في اليوم التالي .

ألتقيت بها في الصباح ، وركبنا القطار كعادتنا ، و لم نتبادل الحديث كالعادة ، و مضى كل منا في طريقه .

في المساء تسللت إلى شقتها لتكمل الحديث ، حديثها المؤلم ، حديثها الحزين ، و إن كنت لم ألمح أي دمعة تعانق خدها ، و إنها ثابتة الأعصاب .

شربنا الشاي الذي أعدته سريعا ، و جلست أمامي لتبدأ الحديث .

أصبحت المسئولية علي البيت و إعداد الطعام يوميا بعد عودتي من السوق، و الدكان بعد أن أفرغ له في العصر .

و أبي أين أبي ؟ كان همه الوحيد الخمر التي يشربها ، و كأنه يريد أن يهرب من شيئا ما .

تعودت أن أنام في حجرتي وحيدة ، و أنا أرتدي قميص النوم ، أنام فاستغرق في النوم سريعا من التعب و الإرهاق طوال النهار .

و ذات يوم أحسست بثقل فوق جسدي ، كانت المفاجأة ، وجدت أبي قد جثم على صدري بكل قوته ، وأخذ يداعب كل مكان في جسدي المباح له ، حاولت أن أبعده عني ، حاولت مرة بهد مرة ، و لكن دون جدوى ، و أخيرا استسلمت بعد أ، خارت قواي ، فاغتصبني .

و ابتعد عني ، و كأنه لم يفعل شيئا ، و ذهب إلى حجرته ، و نام نوما عميقا ، و فكرت أن أقتله ، و لكن ما الفائدة .

لمحت هذا لمرة بعض قطرات من دمها ، و كانت تمسحها بظهر يدها.

خرج في الصباح كعادته ، و لم يعد في المساء ، يوم يومين ، و أصابني القلق ، أردت أن أذهب إلى الشرطة لأبلغ عنه ، و لكن خطيب أختي جاء و أنا أغلق الدكان ، و نظر إلي ، و الحزن يملأ وجهه ،

أحسست بشيء غريب ، بهاجس ينتابني . و ألقى علي بقنبلة ، أن و الدي مات في حادث ، و أنه في مشرحة المستشفى ، و ينتظرون أن يأتي أهله .

لم أدري أين أنا ، رغم إنني لم أبرح مكاني ، و اصابني الوجوم ، و لمن أذرف دمعة واحدة ، و لم أطلق صرخة واحدة ، بل أحسست أن صوتي محبوس في داخلي من الصدمة .

و أخذني في اليوم التالي خطيب أختي ، و ذهب بي إلى المستشفى ، و سألني الطبيب أن أتبرع بأعضائه ، و دون تردد وافقت ، رغم دهشة حطيب أختي ، و قلت للطبيب في ذلك الوقت :

بعد أن تأخذوا ما تريدون أدفنوه بمعرفتك في مقابر الصدقة .

أيام قد أعلقت فيها الدكان ، ثم عدت لأفتحه من جديد .

ثلاثة أشهر ، عندما لاحظت أن بطني بدأ في الارتفاع ، أحسست بخوف شديد من العار الذي سوف يلحق بي ، فأغلقت المحل و الشقة ، و سافرت إلى خالتي في الريف .

كانت خالتي نبوية تعيش وحيدة ، مثلي ، بعد أن توفي زوجها ، استقبلتني بفرح و بهجة ، و لكنها بعد عدة أيام لمحت بطني ، و قالت لي :

من فعل هذا بك ؟

قلت لها و أنا أبكي :

أبي .

و أصابها الدهشة ، كادت أن تصرخ لولا خشيتها من الجيران الذين يتساءلون عن سبب هذا الصراخ .

و عشت معها كخادمة أطبخ ، و أنظف ، و أعتني بها ، فقد قالت لي :

أنت هدية ، لقد جئت في وقتك المناسب ، فأنا عجوز لا استطيع أن أخدم نفسي .

أنجبت طفلي ، و ازادت معاناتي في العناية به مع العناية بخالتي العجوز المريضة ، مع شغل البيت ، مع العناية بالأرض التي تركها لها زوجها .

كتبت كل شيء باسمي ، برغم الحاحي عليها بألا تفعل ، ، و أن معي معاش والدي ، و بعض المال من عملي في المحل ، و لكنها أصرت ، و قالت لي يومها :

لم يعد في العمر بقية ، و أظن إنني سوف أموت في القريب العاجل ، فعندي السكر و الضغط و القلب ، أمراض الشيخوخة كما تعلمين ,

و ماتت خالتي لتكمل البقية الباقية من مأساتي ، و أخذت أعتني بأبني ، و الأرض ، أن أعتني بكل شيء .

تقدم لخطبتي العديد من الأشخاص ، لجمالي و لثروتي ،و لكني رفضتهم جميعا ، رفضت الارتباط من أجل ابني .

كنت أعود إلى القاهرة بمفردي ، أباشر البيت الذي ورثته ، و أقبض المعاش ، و أجرت المحل لأحد شباب الحي ، و لكنه بعد فترة أحسست أنه يسرقني فطردته ، و حاول أن يرفع صوته ، فاتصلت

بالشرطة ، و أمرته الشرطة ان يبتعد عني و إلا حبسته ، إذا اشتكت عليه مرة أخرى . .

كبر ابني بعد أن تعلم ، و دخل الجامعة ، و تخرج ، و دخل الجيش ، و فجأة قامت حرب أكتوبر ، و جاءني خبر استشهاده ،

هذه المرة بكيت ، بكيت بحرقة ، و أصبحت وحيدة كالعادة ، و حيدة محبوسة في نفسي ، حزينة على أيامي التي راحت سدى .

أجرت أرض خالتي لفلاح فقير ، و طلبت منه أن يراعي الله ، ثم ضميره ، و سوف أعود كل سنة ، و يعطيني ما يجود به ،

كان الاتفاق أمام العمدة و شيخ البلد ، بل وشيخ الخفر قريب هذا الفلاح .

و عدت إلى القاهرة ، عدت إلى بيتي ، إلى محلي ، على حياتي التي أدفن فيها أحزاني ،

كنت أريد أن أتحدث إلى أحد ، فكرت أن أتحدث إلى جارتي ، و لكني خشيت أن تسرب ما أقول في مجالس النسوان ، حيث يثرثرون غالبا بالتفاهات ، و الخوض في أعرض الناس .

و أخيرا وجدتك ، هادئ صموت سكوت ، لا تحدث أحد ، برغم أن الحي به كثير من الفتيات الجميلات اللائي يحاولن أن يتقربن منك ، و لكنك لم تعط أي منهم ريق حلو .

حتى عندما طلبت منك أن تصعد إلى شقتي ، رفضت في بادئ الأمر ، ثم وافقت أن تسمع حكايتي ، و أنفض الركام الذي تزايد في صدري ، في قلبي ، و هأنذا اشعر براحة لم اشعر بها منذ سنوات .

و ثار البركان

هادئة هي كنسمة الهواء ، كصفحة ماء النهر ، هكذا تعودت من منزل والدها ، كان إذا حضر إلى الشقة ، تنهي أثر الحياة فيها ، فلا اسمع صوتا ، و خصوصا صوت أمها و أختها .

و تقدم إلى خطبتها شاب ، لمست فيه نفس الصفات التي تتحلى بها ، كان حين يتحدث حديثه في همس ، يسمعه فقط من يقابله .

و سمحت لها والدتها بأن تخرج معه ، بشرط ألا تذهب إلى بيته ، و أن تجلس معه في مكان مكشوف به ناس .

و تم الفرح بسرعة ، فوالدها لا يريد أن تطول فترة الخطوبة ، مادام العريس جاهز من مجاميعه .

أسبوع قضته معه في أحد المصايف ، أسبوع من العسل الصافي الذي يشفي القلوب ، و يبعث البهجة في النفوس ، كان هذا الأسبوع هو ما قرره إجازة من محله الذي ترك فيه صبيه .

و عادا إلى شقته ، شعرت فجأة بانقباض ، لماذا . لا تدري ، رغم أن الشقة كانت جميلة ، و الأثاث فاتح اللون .

و كانت الصدمة ، بداية الصدمة ، و جدت حماتها تجلس على الكنبة في مواجهة الباب ، لقد ظنت أنها ستعيش لوحدها ، و لكن لا ضير في ذلك .

و نزل زوجها إلى عمله ، إلى محله ، محل البقالة ، و كان يرسل لها كل يوم مؤونة البيت من خضروات و فواكه مع صبي المحل .

كانت تنظف الشقة رغم أنها نظيفة ، كانت تعد الطعام حتى إذا حضر زوجها أكل ، و استراح قليلا من الوقت .

لم يمض غير أسبوع حتى بدأت حماتها في عرض مسلسل النكد ، أوامر ، أوامر على أي شيء .

لاحظ زوجها ذلك ، و قال لها و هما في حجرة النوم :

أعرف أن أمي تحاول السيطرة عليك بأسلوبها ، حاولي أن تبتعدي عن المشكل معها ، و إذا اضطررت أتركي مكانها ، و اذهبي إلى حجرتك .

فجأة و دون مقدمات أصيبت الحمى بشلل في أطرافها ، فاعتنت بها كل العناية ، رغم نظرات الغل و الكراهية التي كانت تراها في عينيها .

قالت لننفسها ، ما سبب ذلك الغل ؟ ما سبب تلك الكراهية ؟ فأنا لم أفعل شيء يغضبها ، أما كما قرأت في الكتب و المجلات إنني نازعتها حب أبنها لها ، شاركتها فيه .

كانت تأخذها إلى الحمام كل صباح ، و رغم ذلك كانت تبول على نفسها ، فكانت تغير لها بعد أن تقوم باستحمامها .

و ذات يوم بينما كانت تشاهد التلفاز ، إذا بصبي المحل يقرع الجرس ، ويخبرها بأن سيارة صدمت زوجها ، و نقلوه إلى المستشفى .

ذهبت إلى المشفى لتطمئن على زوجها ، كانت الإصابة بسيطة ، و لكنها أقعدته عن الحركة ، فللازم البيت .

أصبحت مهمتها رباعية الأبعاد ، العناية بالبيت ، العناية بأمه ، العناية بزوجها ، العناية بالمحل . لا وقت للراحة ، لقد زادت الأعباء عليها .

ذات يوم جاءت أمها و أختها لزيارتها ، و مساعدتها ، ولكنهما أحستا بأن حماة أبنتها تنظر إليهما بغل و حقد ، فقررت الأم أن تترك ابنتها ، و لكنها رجتها أن تبقى قليلا من الوقت ، يتحدثان ، و تشكي لها , تفضفض عن الحزن المكبوت بداخلها ، و جلست الأم ، و إن لم تأخذ راحتها .

و كأن القدر لها بالمرصاد ، لقد توفي زوجها ، فشيعته إلى مثواه الأخير ، وكلها حزن و ألم ،

قالت لها أمها :

تعالي إلى بيتك

قالت و هي تبكي :

هذا هو بيتي ، و هذا هو قدري ، و لن أترك حماتي بدون رعاية .

استئجرت لحماتها من يقوم على خدمتها وحدها ، على أن تتحمل هي أعمال البيت ، و أعمال الدكان ، و ثارت الحماة في وجه الخادمة ، فتركتها و نزلت إلى محل البقالة تشتكي ، فطيبت خاطرها . فاضطرت الخادمة إلى العودة إلى البيت مرة أخرى .و لحقتها صابرين .

كانت حماتها في ثورة تريد أن تطرد الخادمة ، ولكن صابرين نظرت أليها بشدة كما كانت هي تنظر في السابق ، و حينما لم تهدأ حماتها ، ثارت صابرين ثورة عنيفة و قالت لها :

هل أترك المحل و أجلس بجوارك ، دعك من هذا الغل ، فأنا مستعدة أن أترك البيت لك ، و أذهب و لا أعود .

هدأت حماتها أمام ثورة زوجة المرحوم ابنها ، و أخذت تبكي بكاء مريرا ، فاقتربت منها صابرين ، و أخذت رأسها في حضنها ، و ربتت على ظهرها بحنان ، ثم تركتها و نزلت .

حين عادت في الليل كانت حماتها نائمة على الكرسي ، و كانت الخادمة بجوارها تشاهد التلفاز .

أخذتها و ذهبت بها إلى حجرتها ، و قالت لها و هي تظن أنها نائمة :

أرجو ألا تكرري ما تفعلين ، و إلا غضبت ، و هجرت البيت .

كانت حماتها قد فارقت الحياة ، و دم دفنها في نفس اليوم .

دخل حجرتها لتنظفها ، و جدت بجوار السرير أوراق كثيرة غير مرتبة ، أخذت ترتبها و تقرأ ما بها .

قررت أن ترتب الوراق حسب التاريخ المدون بها ، و حينما انتهت ، جاءت بكراسة و أخذت تنقل و تكتب و تضيف ما يلزم ، فأصبحت مذكرات حماتها قصة جميلة .

عرضتها على أحد دور النشر التي كانت تشتري منها تبها ايام الدراسة ، و اتفق معها صاحب الدار على يكون الربح منافة ، بعد خصم مصاريف الطباعة و الاعلانات . و الغريب أنها وافقت .

زواج بالقرعة

لم يعرف أحد هل استجابت لنداء قلبها ، أم لنداء المال ، و لكن زوجها عرف في النهاية أنها تزوجته رغبة في ماله ، و ليس حبا في شخصه .

كانت نيللي فقيرة يتيمة الأبوين بعد أن مات والدها " طوسون " و لم يترك لها سوى مائتي جنيه .

و على الرغم من ضآلة هذا المبلغ الذي كان على نيللي أن تعيش به فترة من الزمن لا تدري مداها ، فإنها لم تشعر بدقة مركزها و خطورته، إذ كانت فائقة الجمال ، و كانت في سن الزواج .

و لم تكد تنقضي أيم حدادها على أبيها ، حتى حضر لزيارتها جمال ، أحد الشبان الأثرياء النابهين ، و كانت تربطه بها صداقة قديمة ، أيام الدراسة .

و تحدث الشاب إلى صديقه في موقفها بعد وفاة أبيها ، ثم عرض عليها أن تدعه زوجا لها ، و لكنها ردته في رفق ، و ذكرته بأنه صفر

اليدين ، و أن أجره لا يكفه وحده ، فاقترح عليها أن تشتري مزرعة جارها بالمبلغ الذي آل إليها ،

و لكنها سألته :و من أين لنا بالحيوانات و الطيور .

فلما لم يجد لهذا المشكل حلا ودعها آسفا و أنصرف .

و مضت أيام قليلة ، ثم أعلنت نيللي إنها تعرض نفسها للزواج بالقرعة ، على أن يقدم كل من يريد الاقتراع رسما من الحيوانات و الطيور لا تقل قيمتها عن ثلاثمائة جنيه ، و اشترطت أن تؤول ملكية هذه الرسوم جميعها إلى من يكسب القرعة فيظفر بها زوجة له .

و حان موعد المسابقة ، فتوافد المقترعون على منزل العروس .

كان أولهم " عبد الصمد " و أمامه قطيع صغير من الأغنام الهزيلة ، ثم تبعه " شحاتة " ابن العمدة ، ليسوق قطيعا من الخرفان السمينة ، ثم المزارع " أنور " يسحب بقرة لا بأس بها ، ثم رابع يحمل قفصين من الدجاج و البط ، و آخرون كثيرون .

و كانت نيللي قد جلست إلى منضدة صغيرة ، وكلما حضر متسابق كتبت ورقة باسمه ثم طوتها ، فلما انتهى سيل المتسابقين قدمت الأوراق المطوية إلى العمدة ليسحب إحداها ، و أدار العمدة الأوراق في يده عدة مرات ، ثم تناول واحدة منها و فتحها ، فكاد عبد الصمد يقع مغشيا عليه من شدة الفرح .

و في المساء كان العروسان قد عادا من الفرح و جلسا يتسامران ، بود و صفاء ، و أخذ ينظر إليها في شغف، و حنان .

ذهبت إلى الحمام ، و خلعت فستان الفرح الأبيض ،ولبست قميص نوم شفيف أحمر .

قال عبد الصمد : هد قد أتيحت لنا فرصة الحصول على الطيور ، و الحيوانات بلا ثمن .

فقالت نيللي : نعم يا عزيزي ، و دعنا نذهب لنشتري المزرعة .

و سكت عبد الصمد برهة ثم قال كم كنت أخشى يا عزيزتي أن يفوز بك غيري .

فأجابته نيللي و هي تعانقه :

لم يكن ذلك ممكنا يا عزيزي ، فإن جميع الأوراق لم تكن تحمل إلا اسما واحدا هو عبد الصمد الحبيب ,

أخذ يقبلها في خدها ، في رقبتها ، في صدرها ، في بطنها ، و شعر أنها أصبحت ملكا له .

قضى ليلته في حضنها ، و في الصباح ذهب إلى المزرعة ، و اشتراها باسمها ، فلم يكن يريد من الدنيا سواها .

محاولة جريئة

تزوجت و هي في عمر الزهور ، و عاشت مع زوجها سنة جميلة ، عشعش الحب و الحنان على وكرها ، و أنجبت طفل جميل ، فاضطرت أن تترك عملها لتعتني بطفلها .

كانت تعمل في شركة خاصة ، و حينما تقدمت باستقالتها ، رفضها صاحب العمل ، و أعطها إجازة مفتوحة ، تعتني فيها بطفلها .

لم يمض كثيرا من الوقت حتى توفي زوجها ، فاضطرت إلى الاستعانة بخادمة تعتني بطفلها ، و عادت إلى عملها لتسطيع الإنفاق على نفسها ، وعلى ولدها ، و أجرة الخادمة .

تقدم إليها الكثير من الرجال ، و لكنها رفضتهم جميها ، إنها لا تريد أن يكون لابنها زوج أم ، قد تكون معاملته في بادئ الأمر طيبة ، فإذا ما انجبت ، انقلب على عقبيه ، و أصبح ابنه هو الكل في الكل .

أصبح ابنها في عمر الزهور ، يذهب معها إلى المدرسة في الصباح ، و يعود لوحده بعد الظهر .

كان كما نبهت عليه يسير على الرصيف ، و لا يهبط إلى الشارع إلا إذا كان خالي من السيارات .

و أثناء سيره و الأمطار تهطل بغزارة ، و قف بجوار عمود النور ، و لم ينتبه إلى إنه عاري ، و أسلاكه بارزة ، إذا به يصعق من كهرباء العمود ، و أسلم الروح في الحال .

و كأن الحزن هو شعارها الذي تعيش به ، لبست السواد ، و ملأ الحزن قلبها و مشاعرها ، و رغم مرور السنوات إلا إنها ظلت على حالها .

لقد طلبها صاحب العمل ، و حاولت أن ترفض ، و لكنه أقنعها بأن الحياة مستمرة ، و لن تقف مهما حدث لنا .

و أغلقت شقتها و ذهبت إلى بيته هي و الخادمة ، كان بيته عبارة عن طابقين ، و كانت لديه أيضا خادمة عجوز تعتني بنظافة الشقة النظيفة ، و تقوم بعمل الطبخ الذي نادرا ما كان يأكل منه ، بل كل أكله من المطاعم .

تزوجها و طلب منها ألا تأتي إلى حجرتين ، ففيهما كل ذكرياته ، و نفذت في أول الأمر ما طلب .

طلب منها أن تجلس في البيت ، و ان تمارس هوايته كسيدة بيت ، و لكنها رفضت خوفا من الملل .

كان يصحبها ‘لى سهرات عمله ، و قد اشترى لها العديد من الفساتين لتبدل فيها كما تشاء ، و خاصها بفستان وردي اللون ،كان يظهر مفاتنها و أنوثتها الغائبة عن الأنظار .

شعرت بالسعادة تعود إليها تدريجيا ، السعادة التي تركتها في شقتها القديمة، و التي أغلقتها لتكون عروس من جديد .

كان زوجها يعلمها كيفية إدارة الشركة ، و كيف التصرف بحذر إذا أقبلت على أي مشروع جديد .

و لكن القدر لم يمهلها على تلك السعادة ، لم يكن رحيما بها ، و يبدو أنه أراد أن يذيقها من كأسه للمرة الثالثة ، فخطف زوجها ، و أصبحت أرملة و حيدة ، تعاني من الفراغ و الملل ، .

أَصبحت سيدة أعمال من الطراز الأول ، و كان العمر يتقدم بها إلى مرحلة جديدة ، فلتترك الشباب ، و لتترك كل شيء لتبدأ مرحلة الشيخوخة المبكرة .

كانت لا تزور أحد من جيرانها ، بل ما إن تعود إلى البيت حتى تغلق على نفسها أبوابها .

ثم تذكرت أنه طلب منها ألا تقترب من حجرتين في الطابق العلوي ، فسألت الخادمة عن المفاتيح ، فأرشدتها إلى أماكن مفاتيح البيت .

دخلت الحجرة الأولى ، فإذا بها تجد غرفة نوم كاملة الأثاث ، و تجولت فيها بكل حرية ، و فتحت الدولاب ، فإذا بها تفاجأ بملابس حريمي متنوعة ، و قمصان نوم مختلفة الألوان ، و استغربت ، و إذا بها تجد صورة لسيدة شابة تكاد تقترب منها في العمر ، فعرفت أنها زوجته .

في اليوم التالي فتحت الغرفة الثانية ، فوجدت أثاثها ، ولكن أصغر من أثاث الغرفة الأولى ، و وجدت بها ما وجدت بالغرفة الأولى من فساتين و ملابس داخلية ، و لكنه كما توقعت لفتاة صغيرة ، و نظرت إلى الصورة التي خبأها في أحد الأدراج فإذا هي لشابة صغيرة ، تكاد تقترب من عمر ابنها المتوفي .

و عرفت السبب في تنبيه لها فألا تقترب من الحجرتين .

دق جرس الباب ، فإذا بسيدة من عمرها أو أكبر قليلا ، تنظرها في الصالون ، و قد عزمتها للسهر في شقتها التي في نفس البناية ، بناية زوجها .

و حاولت أن تعتذر ، وو لكن محاولاتها باءت بالفشل ، فقد أصرت الجارة عليها أن تحضر عيد ميلاد ابنتها ، و لكن يكون هناك غرباء إلا صديقتين لابنتها الشابة . ، و اخيرا واقفت .

دخلت إلى شقة جارتها ، فإذا بها مؤسسة بأحسن أثاث ، و لم يكن موجودا فيها إلا ابنتها وصيقتيها ، و ابنها الشاب .

جلسوا إلى العشاء صاحبة الشقة و هي بجوارها , بجوارها ابنها ، و في المقابل ، كانت ابنتها و صديقتيها .

شعرت أن هناك ما يمشي على قدميها ، في بادئ الأمر ظنت أنها حشرة ، فحركت قدمها ، و لكنها ما لبثت أن عادت الحركة من جديد ، و لكن في هذا المرة عرفت إنها مشط قدم ابن جارتها ، فاستحملت قدر استطاعتها إلى أن ينتهي الطعام ، وتعود إلى مجلسها في الصالون.

كان ينظر إليها من تحت لتحت ليرى شعورها حول ما حدث ، و لكنها رسمت على وجهها علامات الجد .

كانت تراه كل يوم و هي تذهب إلى عملها ، و هو يذهب إلى كليته ، و لكنها كانت لا تعيره التفاتا .

حاول مرة أن يمسك يديها و هما في الأسانسير ، و لكنها سحبت يدها ، حاول في مرة أخرى أن يقبلها ، و لكنها لطمته على خده ، لطمة

خفيفة ، ثم في مرة ثالثة حاول معانقتها ، فلطمته لطمة شديدة ، و أخبرته أنه سوف تخبر أمه بذلك .

في المساء ذهبت إلى شقتهم ، و استقبلتها أمه و أخته ، قالت لأمه :

سأدخل في الموضوع مباشرة ، أبنك يتحرش بي ، في الأسانسير ، بل وصل به الأمر أن يتهجم علي في شقتي .

قالت أمه :

معقول

قالت لها ، و كأنها لم تسمع ، و الغضب ظاهر على وجهها ما قالت :

سوف

و لم تكمل جملتها ، أو تهديدها ، فإذا بالفتى يدخل عليهم ، فلما راها أحمر وجهه .

قلت له أمه :

هل ما تقوله المدام صحيح .

قال بكل جرأة و ووقاحة :

صحيح ، و أنا أعرض عليها الزواج .

ثارت من شدة الانفعال و نظرت إليه ، و قد احتقن وجهها ، و قالت :

إذا لم تبعد عني فسوف أعلمك الأدب ، سوف أجعلك تندم على كل أفعالك

ضحك ضحكة عالية ، و قال بسخرية :

لا أعرف كيف أرضيك ؟ فافعلي ما تشائين

في اليوم التالي ، و هي في المكتب قالت لسكرتيرها ما حدث :

قال لها السكرتير : سوف أعلمه الأدب ، لا تقلقي .

قالت له :

أرجو ألا تترك أثرا عليه لكي لا يشتكينا .

في المساء بينما كان هو راجعا إذ به يتحرش به شخصان ، و يضربانه ضربا مبرحا ، و قال له أحدهما :

هذه عينه بسيطة ، انتظر ما هو أصعب .

صعد إلى شقته ، فإذا به جارته تتحدث مع أمه ، و هب تضحك ، سعيدة ، و حينما رأته صعب عليها .

سألته أمه في لهفة :

ماذا حدث .

قال بصوت ضعيف ، لقد تعثرت في حجر و أنا أسير

و لم تصدقه أمه ، و لا الجارة التي قالت له بسخرية:

أنتبه و أنت تسير ، و إلا أصبت اصابة خطيرة .

غادة

عرفتها حينما كنت مريضا ، كانت ممرضة في المشفى ، كنت حينها أجري قسطرة ، و رغم سهولة العملية فإن قوانين وزارة الصحة الكويتية أن بقى المريض في المشفى عدة أيام للاطمئنان على حالته الصحية ، رغم أن العلاج بالمجان ، إلا في حجز غرفة خاصة .

كان الدكتور جاري الذي نقلني إلى المشفى قد أوصى علي جميع الدكاترة و الممرضات ، و من بينهم غادة.

وزاد الاهتمام بي حينما زارني أبو علي و زوجته أم علي جيراني ، و بالصدفة كانت وردية غادة ، و عرفت حين ذلك إنها سورية الجنسية .

كانت عادة جميلة جدا ، جسدها شبه ممتلئ ، عينيها ساحرة ، فمها دقيق كحبة اللوز ، أنفها أشبه بأنوف الرومان . بالجملة ستجدها ذات أنوثة طاغية مستبدة ، لا تستطيع إلا أن تنظر إليها بتأمل .

خرجت من المشفى بعد ثلاثة أيام ، بعد رعاية مجانية لم و لن أجدها في بلدي ، خرجت ، و في نفس اليوم جاءت غادة لزيارة أم علي ، فاستقبلتها و نقلتها إلى شقتي ، و كانت الأحاديث ودية للغاية .

أصبحت أنا وزوجتي مقربين جدا من غادة ، أو قل أن غادة استطاعت أن تكون مقربة منا ، فلا يمر يوم إلا نجدها عندنا إلا في أيام تكون فيها وردية ليلية .

و أصبَحت تخرج معنا يوم الجمعة ، هي و فتجي و جان ، و كنا نتناول طعام الافطار في جاد ، و طعام الغداء في الوالي ، و مرة أو مرتين كانت فنجي أو غادة تدفع حساب الافطار .

و من المواقف الطريفة حين تقدم لها رجل كويتي أسمر ، فلم تجد إلا أنا ليكون الواسطة ، ذلك أن أبا علي وزوجته كان مسيحيين ، و جاء الرجل و استقبلته و أجلسته في غرفة الصالون ، و دخلت تحمل صينية بها قهوة .

و بدأ الحوار بينهما في وجودي طبعا ، قالت له :

لي بعض الشروط .

قال لها قولي ، و أنا سأنفذ شروطي .

قالت بجدية واضحة :

أور تضع مليون دينار في حسابي كمهر ، ثانيا تكون لي شقة لوحدي بعيدا عن أهلك ، ثالثا : ألآ أترك عملي .

بهت الشاب ، و نظر إليها نظر تدل على الاحتقار ، و لكنه كان دبلوماسيا في رده :

سوف أفكر في شروطك .

و أستأذن للانصراف دون أن يشرب الشاي ، أو يأكل من الحلوى .

أحسست حين ذلك أنه لن يوافق ، و لم يعود مرة أخرى إلى لقائها .

و ضحك أبو علي حين قصصت عليه ما حدث ، و قال :

مجنونة ، لن يوافق بالطبع .

مضت الأيام و سافرت غادة إلى سوريا لزيارة أهلها ، و عندما عادت علمنا أنها خطبت لابن عمها الطيار .

لم تمض أسابيع قليلة حتى أعلنت غادة إنها أنهت معاملة الاستقالة ، و أنها أخذت مكافأة نهاية الخدمة ، و إنها سوف تسافر إلى سوريا للزواج .

الجهراء 2001

المحتويات

امرأة اسمها وفاء

أبني و ابنتها

لبليها الرائعة

رقم في حياتها

امرأة بين الشرفاء

قلب الأم

مقلب

الأميرة و الملياردير

حب ضائع

زوجة وصيق زوجها

امرأة بلا هوية

ورقة زواج عرفي

انا و المتعب جملة

امرأة فوق الأربعين

المغفلة

امرأة محتالة

كيف تروض قلبك

دولت

باقة ورد

اجازة زوجية

رواية

فؤاده

مأساتها

و ثار البركان

زواج بالقرعة

محاولة جريئة

غادة